بائع الأحلام

بائع الأحلام

رواية

أحمد مسعد

الحسناء للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى : ٢٠١٩

ISBN 978 -977 -6739 -00-0

رقم الإيداع : ١٣٦٠٧ / ٢٠١٩

ديوى : ٨١٣

١٥٦ ص ، ٢٠ سم

{ جميع الحقوق محفوظة © }

الإسكندرية ، ج . م . ع

٠١٠٠٦٤٢٢٠٦٦

٠٣/ ٥٩٣٠٥٧٦

المدير العام : عادل أبو الأنوار

المراجعة اللغوية : عادل أبو الأنوار

الإخراج الفنى : أمير مصطفى

بائع الأحلام

رواية

أحمد مسعد

إلى ذلك الحلم الذي لم يفقد أبدًا

براءة طفولته

١

بعد الفجر خرج من باب دكانه الخشبى الصغير.. أصغى للصمت الذي يهيم على وجهه في فضاء الليل ليتأكد من نوم الجميع سواه قبل أن يتحرك نحو الداخل مجددًا ويبدأ في إخراج عدد من الصناديق الخشبية الكبيرة محكمة الغلق، ببطء الحريص على محتوياتها.. مسح العرق عن جبينه رغم برودة الجو قبل أن يستدير ويلمس بيديه جوانب الدكان بتأني الباحث عن شيء ما.. دقائق مرت قبل أن تتفكك الحوائط الخشبية، ويصبح الدكان كأن لم يكن.. نظر ببعض الألم إلى الفراغ الذي كان يحتله منذ قليل دكانه قبل أن يضع لافتته السوداء المتآكلة فوق باقي متعلقاته على العربة الصغيرة، ويدفعها نحو الطريق الخالي.. يدفع عمرًا لايمكن حصر تفاصيله إلا في عدد من المجلدات كبيرة القطع.. كان هو بائع الأحلام كما اعتاد أن يصنف نفسه منذ أن استلم الرسالة منذ قرون، حينما تفكر أنه لا أحد يعمر لأكثر من قرن واحد.. وترفع حاجبيك استنكارًا وتتخيل أنهم يدعون ما يقال.. فأنت صادق فيما تفترض ولكنك أغفلت أنك تقيس الأمور بمقياس البشري المعاصر..

من قال إنه بشر.. هيئته البشرية ليست دليلا دامغًا على بشريته الخالصة... ستعاود الاستهزاء وتتهمهم بالكذب ولكنها الحقيقة، ألم يخبروك أن إلهك يخلق ما لا تعلمون؟ هو هذا الذي لا تعلمه.. بائع الأحلام مما لا تعلمون.. ولو تركت أذنيك لسمعت ما سيشعل الإثارة في قضيبك المرتخي بفعل الهرمونات التي يدمنون حقنها في الطعام المستخدم لتسمين الدجاج الذي تشتهى تناوله يومًا بعد يوم.. لرحلة بائع الأحلام دومًا هدف.. سطر جديد من سطور حكايته التي لن تنتهى أبدًا.. حكاية كل الزمان.. وكل المكان.. حكاية اللازمان واللامكان.... فأنت هو وأنت لست هو.. أنت أنت.. ولست أنت.. هو هو وليس هو.. الشيطان والملاك.. الشيء واللاشيء نفسه....

❊ ❊ ❊

كان يدفع العربة أمامه كأنه يدفع جبلًا.. الجهد الظاهر أثره عليه لا يتناسب مع الفعل الواضح أمام أعين من مر عليهم، دون أن يلتفت إليه منهم إلا القليل.. ليس كل ما نراه من الخارج دومًا دليلًا كافيًا على معرفة الحقيقة.. أسند ظهره تحت ظل شجرة تقف وحيدة في وسط الطريق، الذي ضاعت ملامحه بفعل عوامل الزمن.. أو هكذا يقولون لكنه كان يعلم حقيقة أن ما فعله بنو آدم في معالم الطريق أشد وطأة عليه من الزمن.. كان يملك قدر المعرفة الذي

يفيض عن حاجته، لو كان شخصًا آخر غيره ويمتلك القدر الكافي ليقوم بدوره على أكمل وجه.. لا بد أن تنتقل المعرفة من كل منهم إلى خليفته.. يزداد حجم المعرفة في كل مرة، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن ينقص.. النسيان آفة حارة بنى الإنسان.. ولكنه خارج ناموس الرسالة التي يحملها باعة الأحلام منذ بداية وجودهم في الكون.. هبط أولهم من السماء مع من هبطوا.. أو صعد من باطن الأرض مع من صعد.. تلك أمور لا تكشف للعامة مهما بلغت بهم الدرجة والرفعة والمقدار..

وجوده على جانب الطريق مستظلا بالشجرة لم يكن ملفتًا لنظر أحد من القلة، التي مرت عليه في الساعتين والنصف اللتين قضاهما يستجمع طاقته ويفكر في رحلته الأخيرة.. ربما لأنهم كلهم من الذكور.. فقد الذكور منذ زمن القدرة على الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة.. رغم أن السر يكمن دومًا في التفاصيل.. كل بائع للأحلام ينفذ خطة دائرية محكمة.. يبدأ من نقطة ما لا يختارها أبدًا وينتهى عند نفس النقطة، لكنه تلك المرة لا يعلم متى تكون النهاية.. الأكثر غرائبية في القصة أن أحدًا لا يعرف أين يذهب باعة الأحلام عندما يتممون مهام نقل الرسالة كاملة لخليفتهم.. البعض من المهتمين بالشأن التاريخي والباحثين في شئون باعة الأحلام لا يجدون لهم الكثير من الأثار.. لم يستطع هؤلاء العلماء إثبات حقيقة وجود باعة الأحلام، وتعتبر البشرية وجودهم محض

خرافات وهلاوس تنتاب بعض البشر في كل مرحلة جيلية مختلفة.. بعض الباحثين من أصحاب مدرسة هبوطهم من السماء يرجحون عروجهم إليها مرة أخرى.. وآخرون يتبنون فرضية أنهم ينخرطون في الحياة ويفقدون صفاتهم الخاصة ليعيشوا حياة بشرية خالصة تنتهى بوفاة طبيعية، ومراسم دفن هادئة في انتظار نهاية الكون.. كل هذا لم يكن هو ما شغل تفكيره في الفترة التي قضاها على جانب الطريق.. بائع الأحلام كان يفكر في الذكريات.. فلن تتم طقوس تسليم رسالته للخليفة الذي لا يعرفه إلا بنقل الذكريات.

ستشعر كثيرًا بالتعب من كثرة الترحال.. الوحدة ستؤرق أيامك.. ستؤلمك نهايات كثيرة تتذكرها وحدك.. ستزهد حتى فروج النساء العذارى منهن والثيب.. ستتوقف روحك عن السكر مهما تجرعت من خمور.. ستفكر كثيرًا في إنهاء حياتك.. الرسالة ليست سهلة ياعزيزى، وهذا قدر المرسلين منّا.. هل تظن أن الإله أيضًا لم يشعر يومًا بالوحدة؟!.. آفاق من سيل الذكريات على صوت سلفه، قبل عدد لا بأس به من مئات السنوات في نفس البقعة تحديدًا، وتحرك من على الأرض نافضًا من على عجيزته تراب الأرض وتراب الذكريات ليكمل رحلته نحو القرية.. لا بد أن يصلها قبل الفجر.. تكمن عظمة باعة الأحلام في أن الناس لا تدركهم وهم بينهم.. يخرجون من تحت الأرض ويتعامل معهم الناس كأنهم هنا منذ بداية تكوين الوعى.. فلا بد أن يدخل القرية قبل الفجر ليرفع دكانه

الخشبي في المكان المحدد له.. ويرفع تعويذته الكبرى نحو السماء لتهبط مع أشعة الشمس الأولى وتخترق معها مسام السكان يتنفسونها مع الهواء الدافئ المشمس في نهار شتوي، لا يعرفون أنه من صنعه أبدًا.. هكذا دومًا يثبّت أقدامه في القرية.. لا دخل للتعويذة بالأحلام هي فقط الوسيلة لتتحقق غاية الوجود..

❊ ❊ ❊

٢

الكتابة هي الفعل البشري الأكثر قربًا للألوهية.. يصنع فيه الكاتب عوالم خاصة موازية.. يضع فيها قوانينها وتشريعاتها كما يرى وحده.. يمنح الحياة لمن يشاء ويسلبها ممن يشاء.. يرسم ملائكته بأجنحة تسعة من ريش.. وشياطينه بأعين دموية وأذناب طويلة.. يمنح ذكوره عضلات مفتولة وقضبانًا عفية.. ونساءه أجسادًا منحوتة برقاب مرمرية وأثداء مستديرة بحلمات متصلبة وفروجًا متعددة الأشكال تنتظر أن تدك حصونها لتصنع مزيجًا من البهجة المختلطة بتأوهات الشبق لتمنح أكوانه المصنوعة أبعادًا موسيقية وبراحًا غير معهود.. تلك كانت الكتابة التي يعرفها مازن ولا يعرف غيرها.. ينزف من روحه الكثير على الورق ليرتقي سلم الألوهية وحده من أجل أن يخرج بنص واحد يرضى عنه.. تلك كانت مشكلته مع نوال.. مشكلته مع الجميع.. لذا تصنّع الغضب منها صباح اليوم على شيء، ربما ننصفه إذا منحناه صفة التفاهة وقرر أن يغادر المنزل حتى دون أن ينتهي من كوب قهوة الصباح التي لا يستطيع التعامل مع البشر بدونها.. وتركها خلف الباب تلملم بقايا جسدها، الذي لم يتخلص بعد من آثار الغزوة التي شنّها جسده عليها الليلة الفائتة وتنعى حظًا جعل قلبها معلقًا بحبال تربطها بهذا المخبول.. في طرقات المدينة، هام على وجهه بدون هدف كان هو

الآخر يحاول أن يتخلص من آثار ليلته الماضية معها.. بقايا الخمر التي عب منها عبًّا ليتخلص لبعض الوقت من رفقة شخوص تتناوب عليه لتملأ فراغات عقله في الصحو والنوم.. رفقة لا يدرك طبيعتها غيره، ولا يتفهم أهميتها غيره.. كلما كان يكتب نصًّا جديدًا كانت تتحول شخوصه إلى واقع يعيش فيه وحده.. نوال كانت مثل غيرها تعتبر أن ما يمر به محض خبل صافٍ.. كانت تقدر قيمته ككاتب موهوب لم ينل حظه المستحق بعد، ولكنها لن تستطيع أبدًا أن تفهمه.. ألقى بجسده غير المستيقظ بعد على الكرسي الشاغر بجوار باب المقهى الخارجي.. لم يسبق له أن جلس على هذا المقهى من قبل.. هو لا يعلم أين يقع المقهى على خارطة الدنيا، ولم ينتبه إلى أين ساقته قدماه هذة المرة.. ليست الأولى، ولن تكون الأخيرة.. صرخ صبى المقهى ليعلم زميله المسئول عن تجهيز الطلبات خلف النصبة بحاجة الزبون الغريب إلى كوب من البن المغلي بدون سكر وتركه ليكمل بعضًا من الروتين الصباحي الخاص به.. تركه ليحاول أن يلملم شتات أفكاره بعيدًا عن همسات شحاذ يلقي على الجالسين حاجته لنقود تمنحه طعامًا يسد به جوع الليالي الماضية.. مازن كان بحاجة للرحيل منذ مدة ليست بالقليلة.. يدرك أن محاولات نوال المستميتة لإغوائه كانت غير كافية... رغم أن آثار معركة جسدها الشبق مع جسده ما تزال موجودة على صدره، لن تغادره لبضعة أيام، سيتحول لونها من الأحمر المستعر إلى الأزرق

القاتم قبل أن تستكين إلى ظلال بنية خافتة تكمل رحلة الأفول حتى النهاية.. رشف من الفنجان الموضوع أمامه رشفتين صغيرتين ليختبر بهما جودة المنتج المقدم إليه، قبل أن يعيد رأسه للخلف ساندًا إياها على الحائط المتماسك بفعل رغبة أخيرة في الوجود.. سيعود إلى قريته ليختبئ قليلًا مع نفسه أو منها، أيهما كان أقرب للحدوث.. لعل هناك عندما يتخلص من آثار الشبق التي تملأ جسده يستطيع أن يتفرغ للإنصات إلى فتاة الحي الفقيرة التي تحاول أن تبوح له بمفتاح روحها المبعثرة بين ثنايا القهر والكبت والرغبات المشتعلة.. لعله يتمكن من تجميع تلك الأشلاء، ويخلدها على سطور أوراقه.. وكيف سينصت لحكايتها والتأوهات تتصاعد لتكوّن سيمفونية بديعة يعزفها الأوركسترا السيمفوني لجسد منال، تحت قيادة فرجها المبلل بماء شهوتها المتأجج بفعل ضربات متتالية من قضيبه المنتصب.. نوال كانت مثالا جيدًا للمرأة المشتهاة.. كلما مر بجوارها يشتم الرائحة المميزة لسوائل رغبتها المحمومة.. شهران متاليان من الغنج المتواصل.. كيف مر عليه هذا الوقت كله في حضرتها.. هل حقًّا هو معها منذ شهرين؟!! أنهى الفنجان الثاني وهو يحاول أن يتذكر أي شيء حدث في الشهرين الماضيين، غير وجودها بلا جدوى.. فكر في أنها يمكن أن تكون انعكاسًا بشريًّا جديدًا لإحدى إلهات المتعة القدامى عشتار أو أفروديت أو أي من كانت.. هو ككاتب يؤمن بأنه لا انفصال تام بين

الواقع والخيال، ولكن ليس إلى هذا الحد أبدًا.. هزّ رأسه طاردًا تلك الهلاوس وهو يشير بيديه طالبا كوبًا ثالثًا من البن ويضيف بصوته المرتعش ليجعله مزدوج الحجم تلك المرة.. حتمًا تلك محض هلاوس صنعتها في رأسه الخمر، التي لم يتخلص بعد من آثارها.. يعشق تأثير الخمر على كتابته تصنع جسرًا ينقله بمنتهى السهولة للعالم الافتراضي، الذي تعيش فيه شخوصه.. تعرّف على نوال هناك وهو يبحث عن عالم افتراضي جديد في أحد بارات المدينة.. كل البارات تقريبًا تشبه الأخرى.. ولكنه لا يحب التغيير كثيرًا.. يفضل أن يبقى شيئًا ما ثابتًا دومًا لواقعه، كما أن هذا البار تحديدًا يمتاز بإطلالة مميزة على سماء المدينة المخبأة دومًا من أسفل خلف سحابات الدخان الأسود.. ليلتها كان يتأمل الجالسين على الطاولات من حوله، يراقب خلجاتهم بحثًا عن أي تفصيلة تصنع طرف الحكاية.. هناك كانت تجلس وحدها تحتسي كأسًا من الويسكي في صمت المهموم.. جذبته بهدوئها غير المتناسب مع صخب المكان ووحدتها التي تبعث على التساؤل.. طلب لها مشروبًا وتجاذب معها أطراف الحديث الذي اكتمل قرب الفجر على فراشها المبعثر بفعل تقلبات جسدهما على نيران الهياج الجنسي.. على ضوء أشعة شمس اليوم الجديد، تأملها مليًا وهى تغط في نوم الراحة.. أدرك سر انجذابه السريع لها.. كان وجهها يحمل ملامح كل امرأة ذاقها من قبل، وملامح كل امرأة سيذوقها.. جيدها المرمريّ المنحوت من تفاصيل

حواء الأولى لتعيد قصة سالفتها مع آدم الذي سيكونه... ثديها المشدود تفاحته التي لن تخرجه من الجنة تلك المرة... تأثير البن المغلي مع أشعة شمس الذكريات منحت جسده القدرة على الحركة مجددًا، ومغادرة المقهى بعد أن أرسل لنوال رسالة نصية يخبرها برحيله المؤقت... سيخرج تلك المرة بإرادته من جنتها المزعومة ليكمل عقابه، الذي اختاره تلك المرة بإرادته الحرة.

❋ ❋ ❋

٣

٣

كان يجلس بالغرفة الداخلية.. الناظر للدكان من الخارج لا يمكن أن يلم بتفاصيله كاملة.. لا أحد يستطيع أن يلم بتفاصيل الدكان إلا بائع الأحلام نفسه.. تصميم الدكان سر من الأسرار التي تنقل مع الرسالة جيلا بعد جيل.. الدكان هو الأرض الخصبة التي تنمو بها الأحلام.. هو وطن بائع الحلم الآمن، مهما كان موقعه على خريطة الدنيا.. يحفظ وحدة خريطتها كما يحفظ تفاصيل تعاريج كف يده اليمنى.. في الوقت ما بين العصر والمغرب تهدأ حركة الأقدام في القرية.. الكثيرون يفضلون أن يرتاحوا قليلًا بعد وجبة غذاء تقيم أودهم بعد عناء يوم عمل طويل.. وحده كان يستطيع أن يعرف.. طبعًا لا يمكن أن يدعي أنه يعرف الحقيقة الكاملة.. ولكنه يعرف أكثر فهو مخلوق ليعرف.. وقع خطوات قدميها البضتين يصل إلى مسامعه، رغم أنها كانت لا تزال على أول الطريق الترابي المؤدي إلى الدكان.. صوت الخطوات، رغم خفته، مثقل بالخوف من الآخرين.. عجيب أمر تلك القرية.. أهلها يخافون من كل شيء حولهم.. يخافون من الخوف نفسه.. ولا يتورعون عن الانشغال بالكل.. لم تفلح معهم أحلامه تلك المرة.. وكيف ستفلح الأحلام في إنقاذ أرواح ماتت من قبل آلاف المرات؟!!.. الاتفاق غير المعلن مع كل باعة الأحلام يتضمن أنهم سيمنحونك أحلامًا حقيقية تكفيك لتعيش ما

يبقى من عمرك في مقابل أجزاء من روحك، تختار أنت التنازل عنها.. يمكنك أن تختار أكاذيب، ذكريات مؤلمة، حقائق خفية أو أي شيء تريده.. لا يهم.. الأهم أن تدفع.. لا شيء في الأرض بلا ثمن.. الآخرون يتاجرون بالنهايات.. يحتالون عليك بذقونهم الطويلة بيضاء الشعر.. ونظرة الوداعة التي يركبونّها على عيون ذئابهم الجائعة لتصدق وهم أنك لا بد أن تدفع كثيرًا وتتعب كثيرًا لتحصل في السماء على الثمن.. لا يجرؤ أحد على أن يصارحك بالحقيقة.. لا شيء في الكون بلا ثمن.. الإله لم يخلق شيئًا بلا ثمن.. الفيزياء تخبرك أن ناموس الكون مبنى على الفعل ورد الفعل، وأن الطاقة لا تأتى من العدم وأنت تمنح عقلك لبعض الأفاقين.. وحده بائع الأحلام يخبرك.. جوهر رسالته أن يخبرك.. الأحلام هي الحقيقة الوحيدة الموجودة في الكون ولكنكم لا تفهمون..

دخلت الدكان، ودارت بعينيها تبحث عنه وسط الكريات الزجاجية المجوفة.. فراغاتها تبدو للناظر لا تحتوي أي شيء.. هذا ما تراه العيون فقط.. الكريات الزجاجية المعروضة على أرففه الخشبية تحتوي كل شيء.. ولكن لا بد أن تتهيأ روحك لترى عيناك.. الأحلام معروضة للجميع، وكل حلم سيختار صاحبه.. وكل صاحب حلم سيختار حلمه، كل صاحب حلم سيرى فقط حلمه الخاص.. خرج لها من داخل الغرفة الداخلية تاركًا خلفه دفتره الكبير مفتوحًا.. لكل بائع أحلام دفتر كبير يسجل فيه الاسم والنوع والتاريخ والرقم،

الذي تحمله الكرة الزجاجية التي تحتوى على الجزء الممنوح من روحه ورقم الكرة الذي اختاره حلمها.. كرات الأرواح مصنوعة من زجاج غامق أكثر سمكًا ولا تعرض أبدًا.. من الخطر أن تتعرض أجزاء الروح للبشر وأرواحهم.. بعض الأجزاء ستحن للكل الذي خرجت منه.. وستحن أجزاء أخرى للبعض الذي لن تنعم بالاكتمال معه أبدًا.. سترغب أجزاء أخرى بالانتقام.. القواعد واضحة.. أجزاء الأرواح ستحدث فوضى عبثية، لا داعي لها.. فضّل أن يسلك ممرًا صغيرًا يعبر به إلى الخارج أمام باب الدكان تمامًا، قبل أن يدخل عليها محدثًا بعض الجلبة حتى لا تتفاجأ.. ابتسامة أمان ارتسمت على عينيها فبادلها الابتسام.. لباعة الأحلام قدرة على قراءة الأفكار، وما يستعر خلف أسوار العقل المغلقة.. سحبها من يديها بعد أن ربت عليها ببعض الرفق ليمنحها دفقة اطمئنان تحتاجها.. كان يعلم مقدار الخوف المسيطر على خلجاتها تنقله له مسام جلد يديها، التي يحتويها بين راحتيه دون حتى أن تنطق.. همس في أذنيها بكلمات لا يسمعها بشر غيرهما.. فدخلت بقدمها اليمنى من الباب الخفي الموجود خلف الحاجز الخشبى الموضوع في منتصف الدكان.. أشعل الشموع الموضوعة على جانبى الفراش الموجود وحيدًا في فراغ الغرفة، فانساب الضوء يحنو على جسدها الصغير مبددًا عنه الظلمة وانسابت معه بهدوء رائحة أخاذة: مزيج من الياسمين والفل والصندل لتتخللها عبر فتحات أنفها الدقيق

محمولة على أنسام شهيقها الذي يبوح برغبتها فيه.. لو لم تكن ترغبه بشدة ما أقدمت على مغامرتها الصغيرة تلك.. بعد ليلته الأخيرة معها على فراش ربتها... نطقت بكلمات كثيرة وهى تضم جسده العفى بين ذراعيها الصغيرتين، دون أن تتمكن من احتوائه.. جردّها بتأني الخبير من ردائها الحريري فظهرت تفاصيل جسدها المنحوت بحرفية صانع تماثيل دؤوب.. لبائع الأحلام مهارة خاصة في منح الحب.. يمنحها للناس جميعًا دون بخل.. هي كانت تعرف أنها ليست الوحيدة ولكنها لم تكن تهتم.. فقط بين ذراعيه كانت تستطيع أن تقفز على أسوار روحها الحبيسة.. تحقق رغبتها في الهروب منها إلى التي تتمنى أن تكون.. رحلة لم تعرف كيف السبيل إليها إلا على يديه.. أراحها على الفراش بعد أن استشعر ذوبان جسدها بفعل لهيب القبلات التي أمطر بها وجهها الأسمر.. للقبلات أثر لا يفطن إليه الكثيرون.. همس في أذنيها مجددًا فخرجت أهات لوعتها لتحتل قلاع الصمت المحيط بلقائهما السري.. بائع الأحلام يملك ناصية اللغة فيطوعها كيفما يشاء مع نسائه فقط، لا يخبرهم مطلقًا بكلمة حب.. بائع الحلام لا يحب أبدًا.. الحب نوع من أنواع الملكية وبائع الأحلام دومًا حر.. الواهمات فقط هن من يتخيلن أن بائع الأحلام ملكهن.. حرك أطراف أصابعه على جسدها نزولًا وصعودًا فانتباتها رعشة خفيفة قبل أن يزحف بجسده للأسفل، وهو يباعد بين ساقيها لتتصاعد رائحة ماء شهوتها النفاذة

وتتداخل في تركيبة المشهد العطرية.. باعد بين شفرتي فرجها المبللتين، وأدخل لسانه بينهما كان ينفس فيهما أكثر مما يشرب.. اختلطت أنفاسه بحركات لسانه بالكلمات غير المسموعة، التي يبثها فيها.. لبائع الأحلام المقدرة على زرع أحلامه داخل أجساد البشر من أي فتحة من فتحاته كيفما يرى استعداد الشخص... معها كانت فتحة فرجها هي بواباته لروحها قبل جسدها... أخذ يلقم زنبورها ببطء؛ ليدفعها أكثر وأكثر نحو براكين الشهوة المستعرة.. سلالة حواء من ظهر آدم، تفقد السيطرة على جذوة روحها المخفية تحت الرماد حينما تطرق أبوابها الشهوة وعندها تشتهى أكثر.. صوت صراخها المتعالي بفعل حركاته المدروسة يتعالى دون أن يشغله.. ما يحدث داخل غرف الدكان يبقى دومًا داخلها... امتطاها بقوة بعد أن أدخل قضيبه المنتصب بداخلها.. علماء الفلك يفسرون حركات الكواكب والكرة الأرضية ولكن لم يهتم أحد بأن يفهم دائرية الجنس أبدًا.. ينقل بائع الأحلام رسالته باستخدام اكتمال الدائرة بالتقاء جسدين.. عضلات جسدها التي ارتخت بعد أن وصلت إلى قمة توترها تكتب سطر النهاية... حرارة منيه المتدفق بغزارة داخلها تزرع بذرة الحلم داخلها في الفراغ الذي تركته مياه شهوتها المتدفقة بعنف... أحاطها بذراعيه وهو يسمعها تهمس بكلمات لن يفهمها غيره.. تركها بعد أن تأكد أنها الآن تحلم، وجلس على الأرض ساندًا جسده إلى الحائط المقابل.. وحي السماء زاره أمس ليحدد له

موعد نهاية روايته.. كان يعلم منذ أن نصب دكانه في تلك القرية أن الأمر وشيك الحدوث، زاد يقينه عندما اشتم رائحة الشاب العشريني الذي دخل دكانه منذ شهر مضى.. لا يمكن أن يخطئ أبدًا في رائحة باعة الأحلام أقرانه.. لا شيء يشبهها في الكون كله.. ربة الفتاة طريحة فراشه هي العقدة كلها.. زوجة عمدة القرية.. الشيطان الذي يتحكم في لعنة الظلام على أرض القرية.. بائع الأحلام لا يناقش القرارات السماوية أبدًا.. بائع الأحلام لا يلعب دورًا غير الذي رسم من أجله.. الرب عندما خلق باعة الأحلام خلقها لتنفذ مشيئة لا يعلمها غيره.. عندما رأته منذ ليال ثلاث وهو يخترق جسد فتاتها بقضيبه اشتهته.. الشيطان الذي تكونه يريد أن يتملكه مثلما يتملك كل الأرواح في الأرض... الشيطان يعرف أن نسلًا يجمع صفاته مع صفات باعة الأحلام سيملك السماء والأرض وما بينهما.. بائع الأحلام لا يمكن أن يكسر قواعد تكوينه.. آدم يمكنه أن يخطئ ونسله من بعده يمكن أن يستمروا في الخطأ ويستمرئوه رغم أنهم يحملون على أكتفاهم أحجار الخطيئة الأولى وما تبعها.. بائع الأحلام لا يخطئ أبدًا.. يمنح أحلام ويأخذ أجزاء الأرواح مقابلها ولا شيء آخر.. نهض من رقدته وألبس فتاته رداءها الحريري وهي تتكلم كنائم يأبى الاستيقاظ من حلم جميل.. هو لم يوقظها ولن يفعل.. هو سينقلها إلى غرفتها بجوار الحظيرة الملحقة بدوار العمدة في وسط القرية.. في الصباح ستتذكر

الحلم ولا شيء آخر.. أما هو فكان لديه الكثير ليكتبه في الصفحة الأخيرة من روايته.

* * *

٤

التاريخ يعيد نفسه دائمًا... لا تعني الإعادة التطابق في المطلق.. لا مطلقات في الكون.. الإعادة تعني إلى حد بعيد التماثل.. التكرار سنة الأرواح وللتاريخ روح، هي روح قاسية للغاية فهى تمنع الزمن من إثبات ماديته المفترضة.. فلا وجود للزمن في الحقيقة... هو إسقاط لبعض الهلاوس التي اصطنعها وقسمها حفنة من الأجداد كيفما تراءى لهم، وكررها من خلفهم الجميع دون تفكير.. مازن كان يفكر في تكرار التفاصيل في حياته وكذلك كانت نوال.. كلاهما في زمنه الافتراضى الخاص.. مازن كان يرى طفولته تجري أمام عينيه عندما دخل من باب المنزل القديم... هناك كانت تجلس عجوز صباه على كرسيها الهزاز طوال اليوم، تتلفح بشالها الصوفي الثقيل لم تكن تنطق أبدًا ورغم الصمت لم تفقد تأثيرها أبًدا... دوائره المتتالية حولها جزء أصيل من دوائر حياته الصغيرة.. صوت والده الأجش يتردد في كل مكان هنا وهناك كان يلقى أوامره على الجميع بمن فيهم مازن نفسه.. ثلاثون عامًا وربما أكثر، فلا يهم العدد الآن.. كل ركن من أركان المنزل يحمل ذكرى ما في مخيلته.. ذكريات مخبأة بمهارة شديدة في بئر لا وعيه السحيق... لم يسمح لأحد بأن يكشف هذا العمق مهما كانت الظروف.. في الغرفة العلوية وضع جسده

على الفراش المترب، وأشعل سيجارة ونفث دخانها نحو سقف الغرفة..

نوال هي الأخرى كانت تدور في شقتها الصغيرة تتأمل الرسالة النصية التي وصلتها منه صباح اليوم.. رأت الرسالة عندما استيقظت من نومها بعد الظهر.. العطش الشديد هو ما جعلها تترك دفء فراشها.. بحثت عن هاتفها المحمول وهي تشرب بنهم.. كانت ترغب في أن تطلب منه العودة، فالأمر لم يكن يستحق.. هي فعلًا تشعر بالشوق له منذ أن أغلق الباب خلفه ببعض العنف.. أحرف كلماته المختزلة تتراقص أمام عينيها على الشاشة المضيئة لتشكل مشاهد ماضيها مجسدة من جديد.. ميراث ورثته من جدتها الأولى، تسير وحدها الطريق.. قدر حواء منذ الخلق أن تسير الطريق وحيدة.. آدم لم يكن من قبل سوى ظل باهت يهرب كلما اشتدت حرارة الشمس.. مازن هو التجسيد المعاصر لهروب آدم المستمر... أغلقت هاتفها لتقطع اتصالها بالعالم الخارجى.. نزعت عنها قطع الملابس التي تبقت على جسدها من ليلة أمس... وارتمت تحت تيار الماء المتدفق من صنبور الاستحمام المعلق على الحائط.. أرخت عضلات جسدها تحت الماء الدافئ.. لم يعد هناك داعٍ من الغضب.. تعلم أن الماء والصابون لن يفلحا في إزالة آثار جسده من على جلدها.. ستنتظر ثلاثة شهور كما اعتادت، ستداعب فيهم فرجها بيديها حتى تزول آثار قضيبه ومائه الساخن من داخلها.. ثلاثة أشهر

ستدخن فيها التبغ المخلوط بكل أنواع المكيفات التي ستجدها لتخفي آثار رائحته من أنفاسها.. ثلاثة أشهر ستتجرع فيها كل أنواع الخمر الموجودة في السوق ليزول طعمه من على لسانها... ثلاثة أشهر ستولد فيها من جديد.. لا شيء يمكن أن يوقف حواء عن استكمال طريقها المرسوم...

❋ ❋ ❋

في الثالثة فجرًا أوقف الدكان بالقرب من المدافن على قمة الطريق الترابي غرب القرية.. لا يظهر من اللافتة المعلقة فوق الباب سوى كلمة أحلام بلون أبيض باهت وبقية آثار لكلمات كانت هنا من قبل.. في الصباح ومع أول أشعة شمس اليوم الجديد وبالرغم من أن وجوده الفعلي لم يكن قد مضى عليه أكثر من سويعات قليلة فإن اندماجه مع تفاصيل الأشياء جميعًا منحه صفة الأزلية.. سيجلس عند الظهر على كرسي خشبي أمام الدكان لينعم بدفء الانتظار.. ستأتيه تحيات المارة بحرارتهم المعرفة وسيردها مصحوبة بأسئلة الاطمئنان عن ذويهم وسيحمل له الهواء الإجابات مصحوبة بابتسامات الامتنان

❋ ❋ ❋

وسط دخان تبغه المحروق تشكلت صور ذكرياته.. البيت القديم لم يكن يرتبط بها، ومع ذلك خرجت من تحت الأنقاض وجلست بجواره.. يراها مثلما كان يراها في كل مرة وسط بقع من الدماء الحارة.. أطفاله الذين لم يستقروا أبدًا في تجاويف رحمها الضعيف.. كانت أشهر من رقص على مسرح الجامعة.. الفائزة الأولى بجميع مسابقات الرقص الحر في البلاد.. كل ليلة كانت ترقص له وحده على أنغام متعتها ومتعته.. بعد المرة السابعة فقدت اهتمامها بالحياة.. وزنها الزائد بفعل حقن تثبيت الحمل الميت وكئوس شراب ليالي اكتئابها الطويلة أفقدها ليونة الحركات، فتوقفت عن الرقص حتى من أجله.. الدماء خرجت من آخر جرح طولي في شريان فخذها الأساسي، فكانت أكثر من قدرة جسدها الشاحب على الاحتمال.. جسدها فقد الاتصال مع روحها ولكنه لم يفقد هو الاتصال معها أبدًا.. كانت دومًا تذكره بأمه إلا أن أمه لم تكن أبدًا ترقص.. أمه كانت الزوجة المثالية لعجوز تولى منصب عمادة القرية، خلفًا لعجوز آخر ترك مقاليد كل شيء في يد زوجة قوية.. جسدها المترهل بفعل الطعام المطبوخ بأجود أنواع الزبد المصنوع يدويًا في المنزل لم يكن يعوقها عن تربية نصف دستة من الأطفال، كان مازن أصغرهم وذكرها الوحيد.. رائحة خبيزها المميزة، مختلطة بزفارة الدماء الحارة النازفة من جسد زوجته الراحلة زكمت أنفه طاغية على رائحة تبغه القوي.. ودفعته دفعًا ليتقيأ

مرارة آلامه المختلطة بعصارة معدته الخاوية.. لماذا عاد؟! سأل صورته المرسومة على سطح مرآة أفقدها الزمن القدرة على أن تعكس الأجسام.. فقط تعكس أشباح الأرواح الحائرة بداخل الأجسام، التي لم تتمكن بعد من الوصول إلى معادلة الاتزان.. مسح وجهه المبلل بالماء في طرف قميصه الممتلئ بأوساخ طريق السفر.. يهرب من عنفوان رغبات جسد امرأة ليلقي بجسده المتعب تحت مخالب أرواح الماضي، التي تنهشه بلا رحمة... صوفيا تشعر بألمه حتمًا في عالم آخر.. وكيف لا وقد أكل التفاحة حتى قبل أن تغويه ليفعل.. نوال ومن قبلها ومن سيتبعها محاولات للبحث عن تفاحة مفقودة تحمل آثار أسنانه ليكمل تناولها حتى الشبع لعله يتمكن من أن ينزل الصخور التي يحملها على كتفه ويرتاح.

* * *

المستقبل هو أكثر الأمور غموضًا لبنى أدم.. يعيشون حياتهم يحملون همه ويفكرون فيه.. يغفلون إدراك أن الحاضر أكثر أهمية؛ فهو المقدمات التي ستصنع القادم... بائع الأحلام لا يغير المستقبل.. الباحثون والمهتمون بتاريخ باعة الأحلام ألصقوا خطأ تهمة التحكم في المستقبل بهم.. ولا يمكن تغيير تلك الحقيقة، فصنع حقيقة مغايرة للسائد عند البشر يحتاج إلى تغيير الطريقة، التي يتم بها النظر إلى الأمور... ليس من السهل أبدًا التحكم في كيفية رؤية

الوعي الجمعي للأشياء... تحتاج إلى أن تهدم الثوابت الراسخة في وجدانهم أولًا... الحرب على الثوابت لم تحقق أي نجاح على مر العصور التي عاشها الجنس البشري على الأرض... بقاء الأمر على ما هو عليه أسهل... تغيير الحاضر والتحكم به قدرة أصيلة في ناموس باعة الأحلام، وربما كان هذا هو الباعث الحقيقى على وجودهم بين البشر... مقدار المعرفة التي يمتلكونها وإمكانية قراءة ما يدور في العقول تمكنهم بسهولة من التحكم في الحاضر... وبائع الأحلام يعلم أن الحاضر أهم.. لذا لم يتأخر عن لقاء زوجة العمدة في نفس الوقت الذي حددته في رسالتها التي وصلته مع فتاته ليلة أمس... طرق الباب وهو يعلم أنها ستفتح له.. رغم أنها لا تفعل أي شيء في المنزل بنفسها أبدًا... الأمر في تلك الليلة مختلف.. فلا يوجد في المنزل من يفتح الباب غيرها.. أخبرته فتاته أمس أنها ستصرف الجميع باكرًا... لم يدهشه الأمر.. بائع الأحلام لا يندهش فهو يعرف.. الغرض من هذا اللقاء ليس كما ادعت... هي لا تهتم بأمر علاقته مع فتاتها.. كيف للشيطان أن يهتم بمصير من يملك... رغبتها المحمومة في الحصول على منيه الساخن داخل رحمها المهيأ للحمل تستدعي أن يكونا على انفراد... دخل من الباب وأغلقه خلفه... استقبلته بقناع من الابتسام مزين بأصباغ باهتة أو هكذا رآها.. سارت أمامه نحو الغرفة الداخلية فتأمل جسدها للمرة الأولى.. ردفيها المكتنزين من كثرة الجلوس، هما ما جذب عينيه حتى

أنه لم يهتم بظهرها المستقيم ولا بشعرها الليلي المنسدل بحرية عليه، فقط ردفيها وحركتها صعودًا وهبوطًا مع كل خطوة.. سار خلفها ببطء مصطنع لم تلحظه.. كانت تركز فقط في رغبتها التي اشتم رائحتها تنساب في كل أركان الغرفة... أغمض عينيه وهو يطرد مشهدها وهي تتكئ منذ قليل على المقعد تداعب فرجها لتزيد من هياجها هياجًا... لن يتم الأمر كما خططت ولكنها لا تعلم.. وقف ينظر إليها وهي تخلع رداءها الشفاف، الذي يصف كل مفاتنها.. لم تكن تستطيع أن تكبح جماح نفسها أكثر من ذلك أما هو فعليه أن يفعل ذلك.. يوسف عندما خططت زوجة العزيز لتغويه، لم يكن يعلم فكاد أن يهم بها من فرط شهوته وشهوتها، لولا أن أنقذه الله من الخطيئة.. تلك هي الميزة الحقيقية في كون بائع الأحلام يعلم.. هو لن يكون يوسف، ولن ينقذه الله.. يخرج الله أنبياءه بفعل حكمته.. ولكنه لم يكن نبيًا.. رسالته تختلف كثيرًا عن رسالة الأنبياء... سحبت إصبعها الأوسط مبللا بماء شهوتها ومصته بين شفتيها الملونتين بالأحمر.. وحده يدرك أن لون شفتيها لم يكن بفعل أصباغ التزيين.. رائحة الدماء التي شربتها بنهم تزكم أنفه وتغطي على رائحة شهوتها.. كررت حركتها وهى تثبت نظرها نحو قضيبه، الذي لم ينتصب بعد ولن ينتصب ولكنها لا تدري... فبالرغم من أن حركاتها هي الأكثر مهارة بين كل النساء التي ضاجعهن لكنها لن تثيره... بائع الأحلام لا يثار إلا إذا أراد... بادرها

بسؤال عن سبب رغبتها في رؤيته وتأمل الغيظ الذي تحاول أن تكتمه لكي لا تكشفه عيناها... قواعد اللعبة تحكم عليها أن تضبط مشاعرها.. العشق كان إجابتها له فابتسم ببرود وهى تزيد عليه بأنها منذ أن رأته يعتلي فتاتها وهي تتمناه.. الرغبة صحح لها وهو يتابع محاولاتها المستميتة للحفاظ على هدوئها... الصمت كان ثقيلًا بينهما تستشعره كضيف قدم إلى حفلة بدون سابق دعوى.. ولكنها لم تكن تعلم أنه قد دعاه ليرافقه معه... قامت من جلستها واقتربت منه تحاول أن تمارس طقوس الإغواء التي تحفظها كل امرأة لعوب، خيبة أملها كانت فوق قدرتها على التحمل.. لو لم تكن قد رأت قضيبه يمخر عباب فتاتها منذ ليلتين لظنته عنّينا.. زوجة العزيز لم تكن تعلم عن يوسف إلا حسنه غير المسبوق ونضارة شبابه لذا اشتهته... زوجة العمدة تعلم حقيقته لذا تشتهيه... زوجة العزيز مزقت قميص يوسف من الخلف كي لا يهرب منها.. زوجة العمدة مزقت رداءه من الأمام غيظًا... أنقذ الله يوسف بشهادة الشاهد من أهلها... بائع الأحلام لن ينقذه أحد ولكنه خطط للأمر بدقة.. وحده استطاع أن يميز خطوات أقدام العمدة مقتربًا من الدوار ليس لأن الزوجة كانت لا تسمع جيدًا، ولكن لأن العمدة كان لا يزال بعيدًا... ألقاها ببعض العنف على الفراش فظنت أن خطتها بدأت تدخل مرحلة التنفيذ.. قسوته على جسدها اللين جعلها تتأوه... تأوهاتها دفعته ليزيد من قسوته عليها لتتحول تأوهاتها إلى صراخ... جلبة

الصراخ كانت كفيلة لتدفع العمدة إلى استخدام كل ما خزنه من طاقة طوال سنواته الماضية في فتح الباب بعنف لينقذها... لن يعرف الحقيقة أبدًا... لا أحد يستطيع أن يجزم بحقيقة أي شيء... ما الحقيقة؟.. لا حقيقة... سيظن أنه أنقذ زوجته من بين ذراعي سارق أو قاتل حاول التخلص منها.. لن يتعرف عليه أحد من أهل القرية وهم يزفون السارق مقيدًا بالمقلوب على ظهر حمار يجوب به طرقات القرية كلها... واحد منهم فقط سيعرفه وهو يمر عليه أمام شجرة التوت الكبيرة ولن يشاركهم صخبهم الطفولي المعهود فالأمر يتجاوز السرقة بكثير، وحده ينظر إلى عينيه التي لم تنطفئ لمعتهم رغم خزي الموقف... كان يسمع كلمات غير منطوقة تخترق وجدانه وتتردد بداخله... هو أيضًا يعرف الحقيقة غير الموجودة... لا يمكن بمنتهى السهولة أن تصدق أحدًا يخبرك بشيء يخالف ما عهدته على نفسك طوال حياتك... الحقيقة التي تراها بعينيك يمكن أن تكون وهمًا بعينى غيرك... الكلمات تتعالى لتفصل بينه وبين من حوله... ستكون أنت الذي يخافه الموت والأحياء سواء.. ستمتلك وحدك الماضي والحاضر وجزءًا من المستقبل.. لن تملك كل شيء؛ لأنه ليس هناك شيء لتمتلكه كله. فقط لا بد أن تدرك أنك ستدخل إن رغبت نفقًا لن تبلغ مهما حاولت نهايته.. ستأتيك النهاية في ميقاتها المعلوم نفق الحقيقة والمعرفة.. ستمنح حتى الغروب لتحسم القرار.. هل تترك مقعد المتفرج على لعبة الحاوي

الخطرة في دفء الأمان؛ لتخرج تحت الأضواء وتمارس خطورة اللعبة بنفسك... غادر في الاتجاه المعاكس فلا يزال هناك متسع من الوقت قبل الغروب..

❊ ❊ ❊

٥

بعد هذا نظرت فإذا بباب مفتوح في السماء، ثم سمعت الصوت الذي سمعته من قبل. وكان كصوت البوق يكلمنى ويقول: "اصعد هنا؛ لأريك ما لا بد أن يحدث بعد هذا". وفى الحال غمرني الروح، فرأيت عرشًا في السماء، ورأيت الذي يجلس على العرش. وكان الجالس على العرش متألقًا كاليشب والعقيق، ويحيط بالعرش قوس قزح يلمع كالزمرد. ورأيت حول العرش أربعة وعشرين عرشًا يجلس عليها أربعة وعشرون شيخًا، لابسين ثيابًا بيضاء ومتوجين بتيجان من ذهب. وكانت تنبعث من العرش بروق ورعود، وأمام العرش سبع شعلات من لهب، هي أرواح الله السبعة.

وكان أمام العرش ما يشبه بحرًا شفافًا من الزجاج. وأمام العرش، وإلى كل جانب من جوانبه، أربعة مخلوقات لها عيون كثيرة من أمام ومن خلف. كان المخلوق الأول يشبه الأسد، والثاني يشبه الثور، والثالث له وجه إنسان، والرابع يشبه النسر الطائر. وكان لكل منها ستة أجنحة، وتغطيها العيون من الخارج والداخل. كانت هذه المخلوقات لا تتوقف عن التسبيح ليلًا ونهارًا وهي تقول: " قدوس، قدوس، قدوس الرب الإله.. القادر على كل شيء. الكائن والذي كان، والذي سيأتي"

كانت تمجد وتكرم وتشكر الجالسين على العرش، الذي هو الحي إلى أبد الآبدين. وكلما فعلت ذلك كان الشيوخ الأربعة والعشرون يخرون أمام الجالس على العرش، ويسجدون للذى هو حي إلى أبد الآبدين. ثم يلقون بتيجانهم أمام عرشه ويقولون: "أيها الرب إلهنا، أنت تستحق المجد والإكرام والقدرة، لأنك صنعت كل الأشياء. فهي بإرادتك موجودة، وبإرادتك قد خلقت".

ثم رأيت لفيفة في اليد اليمنى للجالس على العرش، وقد كتب على وجهيها. كانت اللفيفة مختومة بسبعة أختام. ورأيت ملاكًا جبارًا ينادي بصوت عال: "من يستحق أن يكسر الأختام ويفتح اللفيفة؟" لكن لم يستطع أحد أن يفتح اللفيفة ليرى ما بداخلها. لا أحد من السماء ولا على الأرض ولا تحت الأرض! فأخذت أبكي كثيرًا لأنه لم يوجد أحد يستحق أن يفتح اللفيفة وينظر ما فيها. فقال لى أحد الشيوخ: "لا تبك، ها الأسد الذي من قبيلة يهوذا ومن نسل داود قد انتصر، وهو قادر أن يكسر الأختام السبعة ويفتح اللفيفة".

ثم رأيت الحمل واقفًا في الوسط أمام العرش، وحوله المخلوقات الأربعة والشيوخ. وكان الحمل كما لو أنه مذبوح. كانت له سبعة قرون وسبع أعين هي أرواح الله السبعة التي أرسلت إلى كل الأرض. ثم تقدم وأخذ اللفيفة من اليد اليمنى للجالس على العرش. عندها سجدت المخلوقات الأربعة والشيوخ الأربعة والعشرون أمامه، وكل

واحد منهم معه قيثارة ووعاء مملوء بالبخور، الذي هو صلوات المؤمنين المقدسين. كانوا يرنمون ترنيمة جديدة فيقولون: "أنت مستحق أن تأخذ اللفيفة وأن تكسر أختامها، لأنك ذبحت، وبدمك اشتريت شعبًا لله من كل قبيلة ولغة وشعوب وأمة وجعلتهم مملكة، وكهنة لإلهنا، وسوف يسودون الأرض"[١].

ثم نظرت وسمعت أصوات العديد من الملائكة، الذين التفوا حول العرش والمخلوقات والشيوخ، فكانوا ملايين وملايين وهم يقولون بصوت عال: الحمل المذبوح مستحق للقدرة والغنى، والحكمة والقوة والكرامة والمجد والتسبيح". ثم سمعت كل كائن مخلوق في السماء وعلى الأرض وتحتها وفى البحر، وكل مخلوقات الكون بأسره تقول: "للجالس على العرش وللحمل، التسبيح والكرامة والمجد والقدرة، إلى أبد الآبدين . وقالت المخلوقات الأربعة: "آمين"، ثم انحنى الشيوخ وسجدوا.

وفتح الحمل أول الأختام السبعة. فنظرت وسمعت أحد المخلوقات الأربعة يقول بصوت كصوت الرعد: "تعال" فنظرت وإذا بجواد أبيض يقف أمامي، وكان الراكب عليه يحمل قوسًا، وعلى رأسه إكليل. ثم خرج بجواده منتصرًا ولكي ينتصر بعد.

❋ ❋ ❋

أشعة شمس النهار منحته الدفء وهو جالس على كرسيه الخشبي على باب الدكان.. ليلته أمس كانت حافلة.. زاره الوحى بعد الفجر.. وسيزوره مجددًا.. تتكرر الزيارات كثيرًا كلما اقتربت النهاية.. هكذا تعلم ممن سبقه وهكذا سيخبر خليفته.. البشارات ستأتيه تباعًا وعليه فقط أن يتأمل معناها وينتظر.. بائع الأحلام ينتظر كثيرًا.. تحرك ببطء من جلسته وهو يبتسم لهذا القادم نحوه مقدمًا خطوة ومؤخرًا خطوتين.. كثيرًا ما يخاف بعض الناس من المجهول.. وبعض الآخرين يخشون ما سيقدمونه.. وغيرهم يخشون كل شيء.. ابتسامته منحت زائره بعضًا من الطمأنينة يحتاجها.. دلفا سويًا من الباب ولم يهتما بإغلاقه.. فهو يعلم أن أحدًا لن يأتيه الآن حتى ينتهي زائره من رحلته بين كرات الأحلام... تلك كانت أول علامات بشارة أمس.. السماء لا يتأخر ميقاتها أبدًا مهما حدث.

❊ ❊ ❊

استيقظ من نومه فجأة كما نام فجأة.. حقيقة الأمر أنه لم ينم.. لا يتذكر أنه نام.. تأمل ملابسه التي لم يغيرها منذ صباح الأمس.. بقايا القيء والبلل صنعا مع مخلفات التبغ والعرق مزيجًا عطريًّا غير قابل للاستخدام الآدمى.. اتجه إلى الحمام، وهو يحاول أن يتذكر كيف انتهت ليلة أمس.. لا يذكر أنه قد تناول الكحوليات.. هو لا يفقد وعيه بعد شرب الكحوليات.. مطارق الصداع التي

تخبط على رأسه تؤرقه.. أسرع في عملية غسيل جسده تحت الماء وخرج عاريًا.. لم يجلب معه ملابس للحمام.. لم يجلب معه أي ملابس من المدينة.. غادر هكذا دون أن يحضر معه شيئًا سواه وتبغه والذكريات.. تأمل منظره في مرآة الغرفة الكبيرة.. لماذا أصبح يشبه أباه هكذا.. لا يتذكر أنه لمح هذا الشبه بينهما من قبل.. ربما لم يشاهد نفسه في المرآة منذ مدة.. أو ربما منحه جلباب والده الواسع الذي يرتديه هذا الشبه.. لم يهتم كثيرًا كما لم يهتم بالتفكير في تفاصيل الحلم الغريب الذي راوده قبل أن يستيقظ.. حتى وهو يبحث في عن أي بقايا من البن ما زالت تصلح للاستهلاك لم يحاول أن يتوقف أمام تفاصيله الغرائبية... اعتاد على أن تراوده أحلامًا غريبة، منذ أن ترك العمل في النيابة.. بل تراوده الأحلام منذ أن كان طالبًا في كلية الحقوق نزلا على رغبة والده العمدة.. كانت تراوده كثيرًا عندما كان يعمل كوكيل للنائب العام في المبنى الخرساني الكبير في وسط المدينة.. ربما تركته قليلا عندما صدم والده بقرار استقالته من العمل.. ربما كانت الأحلام أكثر رأفة به من غيرها.. فقد والده حيًّا؛ لأنه قرر أن يعيش حياته كيفما يحب.. عادت لتراوده بعد كل ليلة دامية فقد فيها طفلًا لم يكن أبدًا ابنه.. انقطعت عنه تمامًا بعدما ترك زوجته وحيدة تحت تراب مقبرته البعيدة خارج المدينة.. لم يهتم هذا الصباح بتفاصيل الحلم الغريب ولا حاول تفسير المغزى من الأسد ولا الحمل ولا

الأختام التي استيقظ قبل أن يرى أكثر من فارس الختم الأول.. كل ذلك لم يكن مهمًّا هذا الصباح.. الصداع كان يمنعه من التفكير في أي شيء آخر.. كان من العبث إضاعة الوقت في البحث داخل المطبخ.. لم يعش أحد في هذا المنزل بعد أن غادرته أخته الوحيدة مهاجرة لبلدة لم يعد يتذكر اسمها.. غادر ليبحث عن أي مكان يشرب فيه كوب البن المغلي الذي سيمكنه من التعامل مع اليوم الجديد بوعي.. كوب البن المغلي الذي سيجعل عقله يبدأ في التفكير في تفاصيل الحلم الغريبة.. لم يكن الأمر بالصعوبة التي يمكن تخيلها.. لم تعد القرية كما كانت قبل أن يغادرها مطرودًا منذ عشرين عامًا.. احتلت البنايات الخرسانية المشوهة كل مكان فيها.. لم يعد القبح ميزة للمدينة فقط.. أصبح القبح اتجاهًا عالميًّا.. جلس على كرسي بجوار الباب الخارجي للمقهى كما اعتاد دومًا أن يفعل.. لا يجلس في مقهى لا يضع كرسيًّا بجوار الباب... فكر وهو يشرب كوبه الثاني من البن المغلي الخالي من السكر أنه سيمضي النهار في طرقات البلدة وسيهاتف نوال مساءً يطلب منها الحضور للقرية.. ولكنه لم يكن يملك سببًا لفعل ذلك؛ لذا قرر تأجيله للمساء.. آدم دومًا يحن إلى حواء حتى لو لم يكن يمتلك سببًا لذلك الحنين.. آدم دومًا يؤجل تنفيذ القرارات، التي لا يحمل لها تفسيرًا منطقيًّا قدر الإمكان.. هو آدم وسيظل.

❊ ❊ ❊

الأمل هو ما يمّكن أرواح البشر من البقاء داخل سجن أجسادها الضيقة.. الأمل هو ما يمنح أجساد البشر القدرة على احتمال الحياة على الأرض.. الأمل هو الدافع الوحيد الذي منع آدم من إنهاء حياته على الأرض بعد خطيئته الأولى.. أمل في غد أفضل.. أمل في حياة أخرى.. من يفقد الأمل تتساوى عنده الحياة والموت.. الأحلام تمنح الأمل.. الأحلام تغذي الأمل.. زائره كان يبحث عن الأمل.. كرات أحلام الأمل الزجاجية بدأت تضوي بلون فيروزي.. زائره كان شابًا في أواخر العشرين من عمره لكنه عاش حياتين.. المسئولية أحيانًا تمنح المرء حياة أخرى موازية.. يحتاج بشدة لما يثبت أقدامه في نعليه المستعملين حد الاهتراء.. ويثبت نعليه في الأرض الترابية التي يمشي عليها كل يوم.. يثبتها في طين الأرض التي يعمل فيها أجيرًا كل يوم بملاليم.. يحتاج أي شيء يجعله لا يرحل.. سيدفع آخرون لا ذنب لهم فاتورة الرحيل...

فكر وهو يسير خلفه أن زائره يحتاج إلى الحب وإلى التعلق.. ولكنه تراجع عن تفكيره كي لا يؤثر على قرار الأحلام.. بائع الأحلام لا يتدخل في تلك المهمة هو وسيط فقط لا غير.. الأحلام لا تتأثر أبدًا.. ألم الفقد الذي أحس به يتراقص في عيون زائره هو ما دفعه ليتراجع عن أفكاره.. الحب والتعلق أمور قد تنتهي بالفقد.. زائره قد نضج صغيرًا على نيران الوحدة.. فقد أبوه جنينًا.. وفقد أمه وهي تضع أخته الخامسة من زوج آخر غادر في ليلة بلا قمر ولم يعد..

دوائر متتالية من الفقد لا تنتهي.. توهج شع من كرة ترقد على الرف الثالث العلوي على اليسار شد انتباههما سويًا... ارتقى سلمه الخشبي الصغير وأمسك الكرة الزجاجية بحرص... الزجاج الشفاف يتموج بألوان وأشكال متداخلة.. ابتسم بائع الأحلام لنفسه وهو يتقدم زائره نحو الغرفة الداخلية، حيث تتم عملية الشراء.. زائره حاله كحال البشر جميعًا.. يسير خلفه في استسلام المنوم مغناطيسيًّا لقوة خارجية لا يعلمها... بائع الأحلام لا يستخدم تقنيات التنويم المغناطيسي مع زواره.. البشر يتركون أنفسهم تحت رحمة الكثير من الأشياء حتى يصبحون هكذا... عملية تبادل الأحلام تتم بآلية يكمن تعقيدها في شدة بساطتها.. لم تكن العملية تتم دومًا بنفس الطريقة.. لكل بائع أحلام قدرة خاصة تميزه عن بقية أقرانه... ولكل بائع طريقته الخاصة التي تتوافق مع تلك القدرة.. داخل الغرفة الخلفية انسابت ذكريات الزائر بهدوء داخل كرته المصمتة... قرر أن يتخلص من أكثر أجزاء روحه ألمًا... أكثرها ارتباطًا بالماضي... كلما امتلأ قدر من الكرة المصمتة تسرب من كرة الأحلام الشفافة ما يساويه.. جسد بائع الأحلام يتبلل بالعرق.. هو الجسر الذي تتم عملية التبادل من خلاله... يطلق الباحثون في شئون باعة الأحلام على تلك الطريقة اسم التبادل الجزيئي غير المتكامل للطاقة... فبائع الأحلام لا يتغير أبدًا... زائره لن يتذكر أنه مر من هنا.. سيستيقظ بعد ساعتين ليلوم نفسه على الغفوة الطويلة التي

راح فيها بعد الإفطار.. سيتحرك مسرعًا ليلحق بالدكان الذي لم يفتح أبوابه حتى الآن.. سيرى الدنيا بعين جديدة تمنحه القدرة على احتمال الظلم.. بائع الأحلام سيدخل في غيبوبة قصيرة ليستعيد ترتيب جزيئات تكوينه الخفيف... عندما يفيق سيعود إلى جلسته على الكرسي الخشبى أمام باب الدكان في انتظار البشارة الثانية.

* * *

٦

لم يكن مازن يملك أي غاية من خطواته على التراب، الذي يغطي الأرض التي سار عليها... هو فقط ملّ من السير على الطرقات الممهدة وسط غابة الوحوش الخرسانية المتعالية بدون أي تخطيط... لم يهرب من خرسان المدينة ليأتي إليهم هنا... الخرسان يسحب الهواء من رئتيه؛ لذا كان يسعل دومًا في المدينة.. ولم يفلح معه أي علاج... هواء أطراف القرية ملأ رئتيه براحة يفتقدها... اللون الأخضر في قطع الأرض الزراعية، التي تجاهد ليستمر وجودها المادى ضد هجمات بشاعة المدنية المكتسبة زاد من إحساسه بالراحة... الشمس تنعكس على أجساد العاملين بقوت يومهم في الأرض فيضوي في السماء بسمرة حمراء مكتسبة بفعل عرق المجهود... كان يسير متأملا تلك اللوحة البديعة التي حرم منها كثيرًا... الكثير من الأشياء تفقد وسط الزحام.. المدينة عبارة عن كتل متلاصقة من الزحام القابل للانفجار... تكمن حرفية الصانع في الغرف المغلقة أنه لا يسمح بحدوثه.. ولو حدث بفعل بعض الخلل في التطبيق... يعدل فورًا نظام التشغيل لتعود الأمور على ما هي عليه مجددًا... تفاعل كيميائى منظم يسمح بتخبط جزيئات المادة دون توليد أي طاقة مؤثرة... كان هذا ما جعله يترك العمل في السلك القضائى... مل من كونه جزءًا من هذا التفاعل غير الآدمي..

خرج ليبحث عن حكاياته وسط تلك الجزيئات المتصادمة... الزحام كان يمنعه من الدخول في العمق... كان يريد الغوص حتى الغرق... ولكنه دومًا كان يجد نفسه في مياه الحكايا الضحلة دون أي عمق... لذا لم يرض أبدًا عما كتب... ربما عدم رضاه هو ذاته كان سببًا في ألا يتمكن من إرضاء غرور العمدة والده، الذي لم يستوعب فكرة التسكع على أرصفة المدينة والقفز على سطور الكلمات كبديل عن السلطة والنفوذ غير القابلين للهزيمة.. حتى حينما حصد عددًا من جوائز الدولة عما كتب.. كان يراها تمنح لشخص آخر يراه الناس ولا يكونه... والده لم يرض أبدًا عن فعلته وطرده من القرية بلا عودة.. لم تشفع له صورة في الجرائد ولا المقابلات التليفزيونية التي أجراها... كان بالنسبة له شخصًا ميتًا.. وبالنسبة لنفسه أيضًا كان الحي الميت... حي يعيش بلا روح وسط أموات تعيش بلا حياة.. والمضحك أنه كان يبحث وسط هذا الخراب عن ما يصلح للخلق على صفحات رواياته.. لم يفطن إلى فداحة جرمه في حق قدسية الكتابة إلا عندما تسربت إلى داخله رائحة الحياة... اللوحة التي رسمت بعناية ومهارة من الهواء الطلق ومزيج اللون الأخضر واللون الأسود المائل للحمرة يمكن أن تدفعه دفعًا نحو الأعماق التي يبحث عنها.. ستساعده على أن يشفى من حالة اللاموت واللاحياة التي هو معلق بينهما من رقبته... سيمضي بقية حياته هنا وسط الحياة... سيبحث عن بيت وسط الفضاء ويطلب من نوال أن تعيش معه

هنا.. سيمارس معها ألوانًا من الحب لم يعرفها ولم تعرفها من قبل.. سيخرج من بين ثنايا جسدها الحر ألوانًا من المتعة التي لم تعرف أنها ستمتلكها... الآن يدرك أنها تمتلك الكثير لم يلحظه وسط زحام الاشتهاء والجو المزكم برائحة الرغبة... نوال تمتلك ما لم تمتلكه أنثى عرفها من قبل.. كانت تمتلك دنيا مكتملة التفاصيل بين ذراعيها اللدنين... الحياة فعلًا رغم أنها ليست عادلة لكنها تقدم لنا دومًا فرصة ثانية... فقط عليك أن تتخلص من إحساسك بالظلم البين.. ومن أزمة التوقعات الخائبة... عدالة الإله تكمن في الفرص الثانية .

❊ ❊ ❊

الشمس رحلت منذ مدة ليست بالكبيرة... وحل مع غيابها بقايا ضوء معلق في السماء ينتظر.. هو أيضًا كان ينتظر.. الجدية التي كان يتحدث بها تمنحه يقينًا بحضوره رغم مشهد زفة التنكيل به، الذي لم يكمله في الصباح... وقف يتأمل صمت الأموات الذي يحتل مكانًا امتلأ منذ بضع ساعات بصخب طفولي.. خطوات أقدام مسرعة وأخرى متمهلة... خطوات خفيفة تكاد تطير من على الأرض وأخرى من فرط ثقلها ما زالت آثارها واضحة حتى الآن رغم ما مر من فوقها... تنويعات من الأفراح والأتراح لم يفكر فيها قبل أن يعرفه... الدرس الأول الذي لقنه له كان عن النظر.. كيف يرى

خلف مكونات المشهد الحركية.. كيف يمكن أن يستخدم كل إمكانيات النعمة التي تزين فجوتي جمجمته الصلبة.. يراقب حركات الطيور التي تأوي إلى أعشاشها بعد رحلة يومها الشاقة.. مثل أهل القرية يمارسون طقوس النهار حتى الثمالة ويعودون محملين بتعب النهار ليضعوه بجوار فرشهم البسيط ويرفعوه على أكتافهم من جديد عند الفجر... أهل القرية دومًا أرواحهم محنية من ثقل ما يحملون رغم بنيانهم المستقيم... رغم أنه لم يدرك طبيعة الرحلة التي سيخوضها برفقته فإن وجوده منح اختلافه عن القطيع مادية الحقيقة.. رغم أنه كان يدعي أنه يعيش ويمارس طقوس النهار والليل مثلهم.. فإن روحه أبدًا لم تنحنِ.. وحده كان يشعر بوجود الشيطان الساكن في البيت الكبير لكنه لم يقدم له القرابين... لم يترنم بترنيمته.. لم يقدم له قرابين الدم في ساحة الهيكل.. كان يتخفي وسطهم ولكنه لم يكن منهم... ما يثير الدهشة داخله أنه لم يدرك وجود رفيقه المنتظر إلا منذ أيام معدودة.. مع أنه كان حاضرًا منذ البداية... مؤكد أنه سيسأله عن الأمر عندما يراه.. كيف يمكن أن تكون ولا تكون.. كيف يعرفك الجميع ولا يعرفونك.. هو لا يتذكر أنه يعرف اسمه قط.. حتى عندما سأله عنه أمس.. أخبره أنه لا يُعرف باسم.. هو أيضا لا يتذكر اسمه.. كأنه لا يصلح مثله للتعريف بالأسماء.. حضوره من العدم كان كافيًا ليقطع خيط الأفكار المتصل... الحوار بينهما كان يتم بلا أي

كلمات.. تبعه مغادرًا القرية غير عابئ بماضٍ كان له هنا.. أنت الحاضر فقط... هكذا أخبره وهكذا كان يريد أن يسمع.. سارا في طرقات خارج إطار الزمان والمكان المألوفين ومع ذلك لم يندهش.. صاحبه كان يعرف الطريق بدقة.. والكلمات كانت تنساب بينهما كنهر جارٍ في اتجاه واحد.. الشمس أشرقت عليهما وحدهما.. دفء المعرفة بعد طول حرمان ملأ روحه... هاب الأمر في البداية ولكنه تقبله... لم يكن هناك طريق آخر.. هو خلق ليكون بائعًا للأحلام.. لا يمكن أن يهرب من طبيعته التي هو عليها.. هو فقط يحتاج مزيدًا من الوقت ليتمكن من التعامل مع حقيقته الأصلية.. كالطفل الذي يتعلم استخدام أقدامه في المشي وأطراف أصابعه في مسك الأشياء.. صعوبة البدايات لا تنفي وجود القدرة ذاتها... أخبره مرافقه قبل أن يصعد نحو الفراغ مثواهم الأخير أن الرحلة ليست بالسهلة.. فكيف ستكون سهلة وأنت وسطهم الإله والمؤمن الوحيد وهم جميعًا غافلون.

❊ ❊ ❊

٧

الخلود هو حلم البشر ممن قدر لهم الفناء.. ولكنهم لو ذاقوه لعرفوا أنه لعنة مقيتة.. أن تدور في دوائر تضيق عليك كلما مر الزمن حتى يفقد هو نفسه جدواه.. بعد المائة الأولى ستزهد في العد.. ستصبح الأوقات كلها متشابهة.. ستعيش في الأحلام وللأحلام.. تلك هي الأزمة فيما هو مقدر.. ليس هناك أكثر ألمًا من الذاكرة.. ستمتلئ بالكثير من الفقد.. سيختفي من حولك الكثيرون وستبقى أنت وحدك تحمل صلبان الحضور... أحيانًا ستتمنى لو عاد بك الزمن لتختار ألا تحمل تلك الرسالة ولكن هيهات.. لا شيء سيتغير.. هل تتخيل أن الإله لو عاد به الزمن للحظة الخلق الأولى سيعيد النظر فيما فعل..؟!

ليس هناك زمن.. هناك فقط الرحلة التي بدأت منذ الأزل.. الأحلام.. الكون أكبر حلم.. الوجود حلم.. حراس الأحلام ضمانة لاستمرارية البقاء..

مهمة ليست بالسهولة الظاهرة.. ولكنه علم منذ أن الرؤية على باب الدكان في المرة الأولى أنه جاء أوان انتقال الرسالة... نسل الحراس يحمل جينات خفية يشتمها أحدهم في بعضهم البعض..

نسل ينتمي لنوع من الخلق لا يشبه بني آدم ويشبهه.. يحمل بصمات الإله مخفية بداخل أرواحهم ولتنفيذ رسالته كاملة.. حتى يرسم هو وحدة النهاية.

يتذكره كثيرًا هذه الأيام.. يعلم أنها طبيعة تلك الفترة من حياته كبائع للأحلام... العلامات تملأ الكون من حوله.. موعد البشارة الثانية اقترب.. في الغرفة الداخلية يجلس أمام كتاب الأسرار المقدس.. يقلب في صفحات ملطخة بعلامات القدم.. الباحثون في شئون باعة الأحلام يؤكدون على وجود الكتاب ويعيدون زمن ظهوره إلى زمن الخلق الأول... لا يمكن لمخلوق من نسل آدم أن يعرف حجم الحقيقة التي تحتويها صفحات الكتاب.. الحقيقة أكبر من قدرتهم على الإدراك، الحقيقة ستهلكهم.. لذا خص الإله بها المختارين من خلقه.. الباحثين في تاريخ باعة الأحلام لا يعرفون أن كتاب الأسرار موجود من قبل زمن الخلق بكثير... يدور بعينيه على سطور يحفظ ما فيها عن ظهر قلب فقط؛ ليتأكد من صدق تأويله للعلامات.. العلامات في كل مكان لكنها تحتاج إلى بصيرة مختلفة لتتمكن من ترتيبها وفك شفرات وجودها.. وجود الكون كله قائم على الرسائل والعلامات في الأساس لكن بني آدم لا يفقهون.

❊ ❊ ❊

توما الإكويني "العالم الملائكي"، الذي عاش في القرن الثالث عشر، أقر للمرأة وضعًا سوف تتمسك به الكنائس حتى الإصلاحية منها - البروتستانتية - لأكثر من ٤٠٠ عام. قال: لما كانت المرأة قد خلقت من ضلع آدم، يتضح جليًا أن قدرها هو الالتحاق بالرجل اجتماعيًا، ومن ثم ليس لها أن تمسك بسلطان ولا عليها أن تسقط في هوان العبودية. كانت شريكته. ولكن فقط في الأمور التي لا مفر منها على المستوى التناسلي. أما في شئون الحياة الأوسع فإن مشاركة رجل آخر أفضل بكثير من مشاركتها، إذ إن الرجل في النهاية هو رأس العائلة لسبب شديد الوجاهة فعنده تسود "حكمة العقل". وتفوقه يتجلى حتى في فعل الجماع، حيث يتولى الجزء الإيجابي الأكثر نبلا، بينما تتولى هي الدور السلبي، دور الخنوع[٢]

أغلقت الكتاب الذي كانت تمضي الوقت بين دفتيه وهي تضحك بشدة... آدم لن يفطن أبدًا للعبة... جدتها الأولى أرست قواعدها وتولى نسلها من بعدها مهمة التنفيذ على أكمل وجه... حواء منحت آدم التفاحة ليعلق عليها خطيئته ويتحمل الأرض كمنفى مؤقت له.. أبدًا لم يدرك أن خطيئته لم تكن في عصيان الأمر الإلهي... لن يفهم أنه لم يكن يصلح ساكنًا للجنة أبدًا... الجنة مأوى دائم للأحرار... خطيئة آدم الأولى كانت الاستسلام... الأرض فرصته الثانية ليتعلم أن يكون حرًّا... وفرصة أبنائه ليتخلصوا من دور العبد الذي يجيدون أداءه منذ القدم.. حواء خُلقت من ضلع حر

لتنعم بالحرية... تمنحه وهم السيطرة ليفعل ما تريده هي وحدها... تطوع جسدها ليعتليها وهو يمسك اللجام ليتلهى باللعب به، ولا يدرك أنها تحدد الاتجاه والسرعة ومكان الوصول... ليست كل النساء وكلهن هي... تحت الرماد المخبأ في جسد كل أنثى تقبع جذوة حواء في الانتظار... المحظوظات منهن فقط هن من تظلن جذوة حوائها مشتعلة، فتمنح مساحاتهن الخاصة من الكون دفئًا مترامي الأطراف... صبت لنفسها كأسًا من العرق مخلوطًا بنوعين مختلفين من الخمور، لم تهتم كثيرًا بماهيتهم... حواء الحقيقية تُسكر ولا تسكر... نابليون لم يخطئ كثيرًا عندما قال جملته المشهورة "فتش عن المرأة".. هو فقط كان لا بد أن يُعدلها لتصبح "فتش عن حواء".. إيزيس حواء.. عشتار حواء.. الثورة حواء.. الأرض حواء تفتح ساقيها لتستقبل قضيب السماء المنتصب بداخلها ليضاجعها حتى القيامة... السماء لا تدرك أن الأرض هي التي تضاجعها... ما يزال هناك الكثير من الوقت المتبقي أمام آدم والسماء للإدراك لو أدركوا...

❊ ❊ ❊

أخاف أن أمشي في غربتي وحدي.. ألحت الجملة على أذنيه فجأة... مقطع من أغنية شهيرة لمطرب كبير غناها في سبعينيات القرن الماضي... كان يسمعها في صباه كثيرًا... كان يسمع الغناء كلما أراد

أن يحسن حالته المزاجية أويتغلب على التوتر... لم يفعل ذلك منذ سنوات طويلة... توقف عن فعل الكثير من الأشياء التي اعتاد على أن يفعلها في عشرينياته العمرية... تدريجيًا بدأ معه الأمر حتى أنه لم يعد يستطيع أن يتذكر متى توقف عن فعل الأشياء... استبدل بعض الأشياء بأخرى فقط ليملأ الفراغات... اعتاد غربته وسط البشر منذ زمن... حتى أنه استمرأ الأمر وصار يُحكم إغلاق الدوائر حول روحه.. قيدها بقيود نفسها ولم يخرج أبدًا من دوائره وهو يتعامل مع البشر... لم تتقاطع الحلقات أبدًا... مخروط طويل من الحلقات المتراصة بعناية وهو يدور في وسطها صعودًا وهبوطًا يبحث عن نفسه... حتى الكتابة كان يبحث عن نفسه وسط سطور الحكايات.

جلس في ظل شجرة التين الكبيرة... أنفاسه تتلاحق بسرعة كلب صيد يطارد فريسة يشتم رائحة يأسها من النجاة... هل حقًّا كان يكتب ليجد نفسه أم كان يكتب نفسه ليجدها، أم أن الأمر أبعد عن هذا وذاك، وأنه أخطأ عندما قرر الحياة رغم اختلافه عن الآخرين... في التركيب التشريحي والوظيفي لم يكن يختلف في شيء عن البشر... يأكل يشرب ينام يظرط ويتغوط يشتهي ويضاجع النساء... لم يكن هناك أبدًا ما يفرقه عنهم... لكنه كان مميزًا.. طبيبه النفسي الذي تردد على عيادته بعد الحادثة، لم يجد به أي

علة نفسية... رغم أعراض الفصام التي ظل طويلا يشعر أنها تنطبق عليه ...

تنفس بهدوء ليزيح عن باله الأفكار قبل أن تتوالى... لم يكن يريد أن يتذكر الحادثة الآن... لم ينس الحادثة أبدًا... تأمل الفراغ المحيط بشجرة التين القديمة، لاح له من بعيد دكان خشبى مهترئ، لا تكاد العين تميزه من شدة تمازجه مع مكونات العمق الداخلى للمشهد... هو لم يطأ بقدمه القرية منذ سنوات، لكنه لا يتذكر هذا الدكان... النسيان نعمة لا يمتلكها مازن... شجرة التين هي مكانه المفضل حتى أنه يستطيع أن يصف موقع حبات التراب المتلاصقة لتشكل الطريق الفاصل بينها وبين وشط الترعة القريب... قطب جبينه وهو يحاول أن يفتش في خبايا ذاكرته لعله يجد أي شيء له صلة بالدكان دون جدوى... المارة يتعاملون معه بألفة أدهشته... نفض التراب العالق بجلبابه من الجلوس على الأرض، وهو يتحرك بحذر نحو الدكان... كان الأمر ملحًّا.. لا بد أن يفك ملامح هذا اللغز..

❊ ❊ ❊

٨

وحان الوقت لتضع أليصابات طفلها، فأنجبت صبيًا . فسمع جيرانها وأقاربها أن الله قد أظهر لها رحمة عظيمة، فابتهجوا معها . وفى اليوم الثامن جاءوا ليختنوا الطفل، وأرادوا أن يسموه زكريا على اسم أبيه. لكن أمه قالت: "لا، بل سيدعى يوحنا". فقالوا لها: " ليس بين أقاربك من يحمل هذا الاسم ." فأشاروا بأيديهم إلى أبيه يسألونه أي اسم يريد أن يسميه ! فطلب لوحًا وكتب عليه: "اسمه يوحنا" فدهشوا جميعا! وفى الحال انفتح فم زكريا وانحل لسانه، وبدأ يتكلم ويسبح الله . فتملك الخوف الجيران كلهم . وراح الناس في كل أنحاء المنطقة الجبلية من الجليل يتحدثون عن هذه الأمور . فتعجب كل من سمع عن ذلك وقال: "ترى ماذا سيصبح هذا الطفل؟" لأن قوة الرب كانت معه[٣]

❊ ❊ ❊

الكتب التي تتحدث عن تاريخ باعة الأحلام لم تذكر أبدًا وجود اثنين منهما في نفس الفترة الزمنية قط... لا يمكن التأكيد على هذه المعلومة أو نفيها... كان يعلم وهو يتأمل جسدها الأسمر الممتلئ أنها لم تحدث من قبل.. لكنه أيضًا كان يعلم أنها ستحدث... عجلة

الزمن لا بد أن تدور.. السماء تخفى الكثير من المفاجآت... الخدر المتسرب من طرف قضيبه الذي تلقمه بين شفتيها كرضيعة جوعى يصله ولا يصله... يرى جسدها ولا يراه... يرى مازن تحت الشجرة ولا يراه... ذهنه مقسوم بين ثنيات جسدها اللدن وبين مازن الجالس مندهشًا تحت شجرة التين... مفردات لغز البشارة تؤكد أنهما سيبعثان سويًا... الحكمة لن تكون واضحة لمازن في البداية لكنه سيدركها... هو يعرفها قبل حتى أن يأتيه البشير... جزء مما حمله عن عاتق سابقه في الفراغ الموازى الذي سبحا فيه... النهاية تقتضى وجود معجزة كونية خارقة... فرصة أخيرة لنسل آدم للخروج من غيبوبتهم الطويلة... فرصة سيكون هو قربانها ولا يهتم... يقرأ أفكاره ويشعر بحيرته... يشتمها تعبق الهواء بين شجرة التين والدكان... تطغى حتى على رائحة الياسمين التي تفوح من مسام الأنثى التي تتراقص أمامه... يلعب بذهنه ليزيد حيرته تأججًا... سيجذبه نحو الدكان... سيمنحه القدرة على دخول الغرفة المخفية... الصدمة أول طريقه للمعرفة الحقيقية التي تحتاجها روحه ليدرك ماهيته ويسمو فوق قناع بشريته المزيفة... المصير معلق بعبوره على الجسر بينهما... الجحيم يقترب.. لا أحد يهتم.. الأحلام المضطربة في كرياتها الشفافة ستنقذ ما يمكن إنقاذه من أشباه البشر وتمنحهم فرصة في حياة أخرى... لن يتمكن من إنقاذ الجميع رغم رغبته في ذلك... باعة الأحلام لاتملك تغيير المصير ولا الشفاعة فيه.. سينفذ دوره المرسوم فقط... الأرواح التي لا تملك ما تمنحه للأحلام ستبقى معلقة في برزخ لا نهاية له... اشتد

انتصاب قضيبه رغم باله المشغول... حلمتا ثدييها المنتصبتان كقضيب طفل صغير لم يبلغ بعد، تتراقص أمام عينيه بفعل حركتهما المتأرجحة... تخلع ملابسها الشفافة قطعة بعد قطعة على أنغام شهوتها المتأججة... تصعد وتهبط بجسدها ونغمات تأوهاتها... صوت خطوات مازن يتعالى داخله ليحتل جزءًا من المساحة الصوتية التي سكنتها أصوات رغبتها المكبوتة... سيجعله يرى ما لم يراه من قبل... تظهر من العدم أجساد تقطر شبقًا... الحرمان يفعل في الأرواح أكثر ما يفعل في الأجساد... قضبان منتصبة وأخرى مدلاه... أثداء تتراقص وأجساد تفوح منها عطور الاحتياج... فروج ناعمة وأخرى يكسوها الزغب... سينفذ تعليمات البشارة الثانية... سيصنع لمازن طقسًا من طقوس الحياة الأصلية... قرابين الأجساد المحرومة تُمنح على مذابح الدكان من أجل الحقيقة الصافية... يضطرب إيقاع الأجساد قربًا وبعدًا... عينى مازن تخترق حجاب الحوائط العازلة... يخشى الدخول... ما يزال يخاف الاحتراق بنار المعرفة... لا يعلم أنه لو دخل سيقترب كثيرًا من غايته التي يبحث عنها داخله منذ عقود... يُفتح الباب من الداخل، لكن بائع الأحلام لم يكن هناك... صوت دهشة مازن يصله مختلطًا بشهقاتها المروية من جسده الذي ما عاد هنا.

❋ ❋ ❋

انتفض جسد نوال من رقدة سكرها على الأرض... تكمم فمها بيديها لتمنع انفجارًا وشيكًا لبركان سوائل معدتها المرة... كانت تشعر بالمرارة في جوفها قبل حتى أن تسكر... غسلت وجهها بعد أن أفرغت حمولة معدتها... تأملت عينيها المرهقة من قلة النوم وكثرة الخمور... الأرض ما تزل تدور بلا استقرار تحت خطواتها... أعزت تكرار أمر تقلبات معدتها إلى كثرة لفائف التبغ، التي تحرقها مع زجاجات الخمور دون طعام طوال اليومين الماضيين... أرقدت جسدها على الفراش طمعًا في قدر من الراحة... الخمول يضرب ثنايا جسدها، رغم أنها لم تبذل أي مجهود يُذكر... لم يفارق طعم المرار جوفها... تتمنى أن يكون ما بها عرضًا مؤقتًا... لا تتكيف مع المرض أبدًا أبدًا... المرض ضعف لا يليق بحوائها... أتتها فورة أخرى من حمم معدتها بدلًا من النوم الذي كانت تنتظره... فتحت صنبور الماء وتركته ينساب دافئًا على جسدها... أغمضت عينيها وهى تجتر لمساته على ظهرها يدلكها محركًا شهوتها الطلوق... تفتقده وعليها أن تعترف بذلك... خرجت من تحت المياه تجرجر جسدها المتثاقل... فتحت دولابها الخشبى لتجلب شيئًا ترتديه... تجمدت يدها في الهواء وانسابت أطراف قطع الملابس من بين يديها لتسقط سقوطًا حرًا... تسمرت عيناها على علبتى الفوط الصحية المغلقتين مكانهما بإهمال في جانب الرف... لا تتذكر أنها قد ابتاعت منها قريبًا... هي لم تغادر المنزل طوال رفقة مازن لها الشهرين الماضيين... جلست على

طرف الفراش عارية... تلهت عن اضطربات معدتها والخمول الذي يضرب جسدها بمحاولة الغوص في أعماق ذاكرتها؛ لتتذكر متى جاءها الطمث آخر مرة... الأدرينالين هرمون يفرز عند التوتر والشعور بالخطر... معدل الأدرينالين في جسدها يتزايد مع فشلها في تذكر أي شيء يخص دورة طمثها طوال فترة إقامتها في جنة مازن... وعيها يرتب الكروت التي يمتلكها ويصنع شبكة من العلاقات اللوغاريتمية بينها... لا وعيها يحاول إنكار الأمر لاستحالة حدوثه... علاقتها بأعضاء تناسلها تنحصر عند قناة مهبلها وعنق الرحم... وسائل تنقلها على جسور المتعة لتحصل على فترات مسروقة من الخلود... بيت ولدها كان مجرد كهف مهجور لا يصلح حتى ليأوى أي نبت... فقدت إتصالها بالخصوبة منذ زمن واقتربت من نهاية أمر إنجابها فسيولوجيًا... تحركت بآلية نحو هاتفها المحمول؛ لتضرب رقم الصيدلية القريبة طالبةً خمس عبوات من أفضل أنواع اختبارات الحمل المتوافرة في السوق... ارتدت ملابسها بنفس الآلية السابقة وهى شاردة... هل حقًّا يملك مازن مفتاح المعجزة التي ستصون نسل جدتها الحواء الكبرى من التوقف حدها... هو كان يملك مقومات ساحرة لم ترها في من ذاقت دفقات ماء ظهورهم الساخن... إحساسها بكونه نسل مختلف عن بني آدم الذين يدورون مخوخين حول كعبتها المقدسة يطفو على السطح

من جديد، بعد أن وأدته داخلها وليدًا... عقارب الساعة المتباطئة ستحمل لها الجواب الذي طال انتظاره.

❊ ❊ ❊

٩

ثم فتح الحمل الختم الثانى، فسمعت المخلوق الثانى يقول: "تعال"، حينئذ خرج جواد آخر أحمر كالنار، وقد منح الراكب عليه سيفًا عظيمًا وسلطانًا لينزع السلام من الأرض، ويدفع الناس ليقتلوا بعضهم بعضًا.

ثم فتح الحمل الختم الثالث، فسمعت المخلوق الثالث يقول: " تعال " فنظرت وإذا جواد أسود أمامى والراكب عليه يحمل ميزانًا بيده. ثم سمعت ما يشبه الصوت من وسط المخلوقات الأربعة يقول: "مكيال قمح بأجر يوم وثلاثة مكاييل شعير بأجر يوم. لكن لا تفسد زيت الزيتون ولا النبيذ".

ثم فتح الحمل الختم الرابع، فسمعت المخلوق الرابع يقول: "تعال"، فنظرت، وإذا جواد أصفر شاحب يقف أمامى. وكان الراكب عليه يدعى "الموت" وتتبعه "الهاوية"، وكانا قد مُنحا سلطانًا على رُبع الأرض، ليقتلا الناس بالحرب والمجاعة والحيوانات المتوحشة. (٤)

❋ ❋ ❋

استيقظ من نومه مشوشًا على طرقات حادة تحمل بعضًا من عنف صاحبها الملول... لم يستوعب كيف وصل إلى فراشه... آخر ما يتعلق بذاكرته هو مشهد طقس الجنس الجماعى، الذي راقبه في الدكان المريب... خطواته تتوالى مبعثرة على درجات السلم الخشبى القديم... البار الموجود بغرفة الجلوس مغلق كما كان قبل حضوره... لذا هو لم يفقد حضور الأحداث بفعل غيبوبة سكر... فتح الباب دون أن يتمكن من أن يفتح عينيه... ضربات أشعة الشمس المتوهجة منعته من أن يرى زائره غير المنتظر... ولكنه دعاه للدخول مرحبًا وهو يكذب عقله الذي ترجم ذبذبات الصوت الرخيم، الذي نطق اسمه بنفس الطريقة التي لن ينساها أبدًا... يوسف ضابط الأمن الذي قابله مرة واحدة قبل الحادثة التي قلبت حياته رأسًا على عقب، منذ بضع سنوات... لم يكن بينهما سابق معرفة من قبل... لم يلتقيا بعدها أبدًا... لا يزال يحتاج أن يفهم كيف يستطيع هذا الغريب أن يعرف موقعه بهذه الدقة... ويحتاج أكثر لأى خيوط تربط بينه وبين الحادثة القديمة ليأمن شر تكرارها مجددًا بعد تلك الزيارة المفاجئة...

جلس يوسف قبالته ينفث دخان تبغه بهدوء من بين ثنايا قناع ابتسامة مزيفة لم تخدعه... الحوار يدور بينهما وهو لا يسمعه... يراه ولا يسمعه... أذنيه تلتقط ذبذبات تنتمى لبعد زمنى آخر حاول أن يخفيها بعيدًا في الهوة البعيدة من ذاكرته القوية... ليلتان مرتا

بعد زيارة يوسف الأولى لمنزل رفيقته الفنانة التشكيلية الأربعينية الصهباء، الذي كان مختفيًا فيه بين تعرجات جسدها الملفوف دون أن يخبر أحدًا... أمضاهما وحيدًا يعيد فك وتركيب كلمات الجمل التي صنعت حوار يوسف المنفرد معه دون فائدة تذكر... ما تزال كلمات جوفاء بلا معنى حقيقى حول تخوف جهات الأمن من روايته وشيكة الصدور... ما دخل الأمن الوطنى برواية لم ينشرها بعد ...؟!! كيف استطاعوا معرفة القصة التي صاغها مستوحيًا تفاصيلها من حياته السابقة كوكيل للنائب العام...؟!! هو لم يتجاوز الخطوط الحمراء، التي يدرك وجودها الوهمى حقيقى التطبيق على أرض الواقع فلماذا هذا التخوف المسبق؟!!

لم ينتبه أحد لغيابه... لم يسأل حارس العقار الذي يسكن فيه نفسه لماذا لا تتحرك سيارته الجيب شيروكى المركونه منذ خمسة عشر يومًا في نفس المكان.. لم يشتك أحد من الجيران من انبعاث رائحة عفنة من خلف الباب، الذي اعتلاه التراب وبدأت أنثى عنكبوت تخيط عشًّا لها في ركنه العلوى.. لم يتصل أحد بمنزله ليسأل عن سر غيابه عن العمل طوال الفترة الماضية... لم تشتك امرأة لصديقتها، وهما يشربان كوبين من الشيكولاتة الساخنة داخل الكافيتريا الشهيرة من عدم اتصاله بها بعد أن أمضت ليلة في فراشه عارية تستمتع بسن قلمه الحبر يجرى على فخذيها ليكتب قصة قرر في لحظة سكر بيّن أن يهديها لها، قبل أن يغمس طرف قضيبة المدبب في فرجها المبلل لينهى القصة بتأوهات متعتها

المتتالية... لم يكتب صحفي عنوانًا يسأل فيه عن سر انقطاع الكاتب الكبير عن حضور الأحداث الثقافية المهمة، التي قد أُعلنت عن وجوده على منصاتها... كانت الحياة عادية كأنه لم يكن هنا أبدًا... كأن اسم مازن عبد الشكور لم يكتب من قبل في سجلات الدولة الرسمية... كان يتحسس ملامح وجهه في الظلام ليتأكد من وجوده ويشعر بماديته... يمر عليه الوقت ولا يشعر به... مشهد الوجوة المقنعة التي اقتحمت عليه غرفة نومه يتراقص أمام عينيه وسط الظلام... لم يتحدث معه أحد من بعدها حتى جاءوا به إلى هنا.. لا يعلم من هم ولا أين هو... لا يعلم أي شيء غير كلمات يوسف، التي ازداد غموضها... حتى عندما ضربت أشعة الشمس عينيه ليفتحها رغم الألم المبرح فتدهشه تفاصيل غرفته المألوفة... مرور أسبوعين عن آخر مرة كان فيها هنا الدليل الوحيد على ما حدث.. لا شيء آخر يمكن أن يثبت أن النظام كان يحاول أن يتأكد من بقاء فمه مغلقًا بعد استقالته... الوهن الذي يضرب أركانه لا يتحمل أن تأتيه الضربات من جزء خرج من باطنه أبدًا، حتى لو في عمل إبداعي يمكن حصره في خيال كاتبه... خرج من غرفته التي قرر ألا يعود إليها أبدًا... سيتذكر ما حدث رغم أنه لن يتحدث عنه حتى بينه وبين نفسه... حلقة سيضيفها إلى حلقات حياته ليدور فيها وحده كما اعتاد.. حجر سيضيفه إلى ما يحمله على كتفه إلا أن أثقاله لم تجعله أبدًا يحنى ظهره.

❋ ❋ ❋

خمس علب كارتونية فارغة ترقد بلا مبالاة على الأرض... أمامها كانت تستقيم خمسة مكعبات بلاستيكية لاختبار الحمل صانعة صفًا أفقيًا... تجلس ضامة قدميها أسفلها في شكل مربع غير مستقر... تتأمل مكعبات الاختبار، التي تلوثت بقطرات بولها الساخن وهى تتشكل لتصنع لحياتها بعض الإيجابية... يرقد في جوف بيت ولدها جنين حملته بعد فقدان أمل.. مشاعرها غير المستقرة تمنع جسدها من الاستقرار في وضع واحد.. تتراقص أمام عينيها شابة بشعر أسود قصير وعيون سوداء حرة أبية تشتعل ذكاءً وحياة... كانت هي منذ عشرين عامًا... أول ما أدركت أنها أرض غير صالحة للزراعة... وأن رسالة حواء الأولى لن تعبر من خلال دمائها ولبنها، الذي ستلقمه لرضيعتها سافرت بعيدًا نحو الجبل الفيروزى في الصحراء المتاخمة لحدود العاصمة... هناك كان لا بد أن تأخذ العهد من جديد... أن تطلب لتنول... ليلتها وأمام النيران المتأججة نحو السماء... اشتعلت نيران الشهوة في جسدها ولم تُطفأ... ركعت على ركبتيها وهى تذرف دموعها الحارة... طلبت أن تصير عاهرة تصبغ وجهها بمساحيق الألوان وتضحك بصخب دون شعور... تغوي آدم ليكرر معها خطيئته الأولى في الجنة... تلك المرة سيكررها مرات ومرات على الأرض... حتى تتحرر روحه من وهم جسدها المظلم... ستلخص كل فصول الرواية في يوم واحد أو يومين... شهر واحد أو بالأكثر شهرين... كلا حسب درجة ارتباط

روحه بسجانها... ستعيش فيها كل ليلة قصة حب جديدة مع نفس الروح... وتكرر قصص الحب مع أرواح أخرى... تعيش شغف البدايات في حكايات تعرف كيف ستنهيها هي فقط... ستبحر مراكبها في بحار من سعادة العهر... فالعاهرات سعيدات... هن لا ينتظرن... يعرفن أن زبائنهن لا يكذبون... وستزيد على عهرها اختيارها لمن تغويه... ستكون نبية على أرض الشهوات... لن تكرر البدايات ولا الأحداث... لن تقاسي النهايات... ستصنع حكايات تغرقها التفاصيل وتستمر لفترات أطول... ستكون عاهرة ولن تكون عاهرة... العاهرات لا يثقن.. لا يُجرحن... صوت رجاء الشابة العشرينية يتردد في تجاويف جسدها الذي أصبح ممتلئًا "علمينى ألا أحب يا أمى". الآن هي تشعر بالحب... ربما لن تستطيع أن تلخص حبها في كلمات... الحالة التي تسري في أوصالها أكبر من قدرة الكلمات على التعبير... ستعاود زيارة الجبل الفيروزي بعد طول غياب... ستجدد عهودها... ستخلع عنها رداء العاهرة الذي أجادته... ستمسح أصباغها وتعيد ارتداء بياض جلدها الأصلي... ستهيئ جسدها ليمنح الرسالة بطريقة مختلفة... ستهاتف مازن... حتى لو رفض وجودها ووجود طفلتها ستهاتفه... تعلم يقينًا أنها طفلة... ستقيم ظهرها من جديد... ستصنع اتفاقًا جديدًا مع السماء ولن تخشى الوجع... فكل وجع هو ابن للحظة ثقة... وهي تثق منذ زمن.

* * *

ألقى أحدهم رجلا معصوب العينين، لم يكن قد رأى الماء من قبل في نهر، فشعر بالماء، وعندما أزاحوا العصابة عن عينيه، عرف ما هو الماء.

حتى تلك اللحظة لم يكن يعرفه إلا عن طريق الأثر الذي يحدثه وحسب.[٥]

❋ ❋ ❋

١٠

وفي السنة الخامسة عشرة من حكم القيصر طيباريوس، كان بيلاطس البُنطي وليًا على إقليم اليهودية، وهيرودس واليًا على إقليم الجليل، وفيلبس أخو هيرودس واليًا على إيطورية وعلى إقليم تراخونتيس، وليساينوس واليًا على الأبلية. وكان حنان وقيافا رئيسي كهنة خلال هذا الوقت. فجاءت رسالة الله إلى يوحنا بن زكريا وهو في البرية . فمر يوحنا بكل المنطقة المحيطة بنهر الأردن مطالبًا الناس بأن يتعمدوا كدليل على توبتهم لغفران الخطايا.

وذلك كما هو مكتوب في كتاب النبي إشعياء:

صوت إنسان ينادى في البرية ويقول:

أعدوا الطريق للرب. اجعلوا السبل مستقيمة من أجله. سيمتلئ كل واد، ويسوى كل جبل وتلة بالأرض، وتستقيم كل الأماكن المعوجة، وتصير الطرقات الوعرة ممهدة. (إشعياء ٤٠: ٣ – ٥).

وقال يوحنا لجموع الناس الذين خرجوا لكي يعمدهم في الماء: "يا نسل الأفاعي، من الذي نبهكم من الغضب القادم؟ اصنعوا ثمرًا يبرهن توبتكم، ولا تتفاخروا بقولكم: إبراهيم هو أبونا، فإني أقول

لكم إن الله قادر على أن يخلق من هذه الصخور أولادًا لإبراهيم، ها هي الفأس موضوعة على أصول سيقان الأشجار وستقطع كل شجرة لا تثمر ثمرًا جيدًا، وسيلقي بها في النار". فسألته جموع الناس: "ماذا يفترض أن نفعل؟"، فقال: "من لديه سترتان فليعط من لا سترة لديه. ومن لديه طعام فليفعل كذلك أيضًا".

وجاء إليه بعض جباة الضرائب أيضًا ليتعمدوا، وقالوا له: "يا مُعلم، وماذا نفعل نحن؟"، فقال لهم: "لا تجمعوا ضرائب أكثر مما ينبغى". وسأله بعض الجنود: "وماذا علينا نحن أن نفعل؟" فقال لهم: "لا تأخذوا مال أحد بالقوة، ولا تتهموا أحدًا زورًا، وارضوا بأجوركم".

وكان الناس ينتظرون متلهفين، يتساءلون في قلوبهم عن يوحنا ظانين أنه ربما يكون المسيح. لكن يوحنا قال لهم: "أنا أعمدكم في الماء، ولكن سيأتى من هو أقوى مني، وأنا لا أستحق أن أحل رباط حذائه. هو سيعمدكم في الروح القدس والنار. سيحمل مذراته في يده ليُنقي بيدره، فيجمع الحبوب في مخزنه، ويحرق التبن بنار لا تُطفأ". وهكذا كان يوحنا يحذر بكلام كثير آخر، وينقل لهم البشرى.[٦]

❊ ❊ ❊

الألم هو طريق من طرق الحياة لكي تجعلنا ندرك... أصحاب الأرواح الحقيقية هم من يشعرون بالألم... قليل من البشر يمتلكون أرواحًا.. والقلة من هذا القليل من تكون أرواحهم حقيقية... تلك القلة التي تفهم بوضوح ماهيتها... تعرف أنها تحتوي الشيء وضده في نفس القالب... وتختار أن تغلب منها ما يخدم دورها في الحياة... هكذا فكر مازن وهو يتأمل الصمت الحاضر جليًا في الفراغ الفاصل بينه وبين يوسف... كان ما اختبره ألمًا حقيقيًّا لا يحتمل... ويوسف يتحمل جزءًا كبيرًا من هذا الألم... هو بنفسه اعترف له منذ قليل في العبارات، التي وصلته بين فواصل ذكرياته... كان يوسف ضابط الأمن المسئول عن تقديم التقرير الخاص بقضيته... زيارته له في الماضي كانت وسيلته لكتابة تقرير يدينه ليحصل على رضا رؤسائه... اعترف أنه كان قد كتب التقرير بشكل مسبق... كان سيدينه حتى لو كان بريئًا... اليوم وبعد تلك السنوات يبحث عن توبة وغفران يحتاجه... قناع الندم الذي يرتديه لا يليق به في المطلق... مازن يملك قدرة غامضة على قراءة البشر... يستطيع أن يرى الألوان الحقيقية للأرواح... رمادية روح يوسف تظهر جليًا تحت حنطية بشرته... يعلم يقينًا أن يوسف سيخونه مجددً... لكنه لم يكن الإله ليعاقب... هو أيضًا لم يكن الإله ليغفر... لكنه كان يمتلك قدرًا من السلام الداخلي ليترك الأمور تحدث كما كتب لها أن تكون... خلايا عقله كانت ممتلئة بأفكار

تخص الدكان الغامض... الوحدة التي يعيش فيها بين جنبات القصر الكبير كانت تزعجه... تقدمه صاعدًا إلى الطابق العلوي ليمنحه إحدى الغرف ليرتاح... قرر أن يمضي النهار في المنزل مع يوسف... العلاقة الجديدة التي لابد أن تنشأ بينهما تحتاج إلى الكثير من البوح والمعرفة... خطوات يوسف البطيئة توحي بالشك... الأمر بالنسبة لمازن لم يكن صعبًا للغاية... سيمنحه الغفران الذي يحتاجه... سيعمده ليتطهر... سيكون يد الله حتى تظهر حكمة الأشياء... هكذا يتعامل مع أمور حياته منذ سنوات بعيدة... منذ أن كره صورة الإله التي يحملها الناس في مدينته على رءوسهم... الله الذي يؤمن به موجود في أمور لا يفكر فيها بنى آدم... إله مازن ليس له علاقة بالبخور والترانيم ولا الألحان... أكبر من أن يُحصر في الإطارات المذهبة من صلوات وصوم وقرابين المذابح والطقوس... مازن يعيش غريبًا في الحياة منذ أن تعلم أن يملأ رئتيه بالهواء... مازن كان يعيش غريبًا عن الناس رغم كثرتهم... غريبا عن المنصب والشهرة... والغرباء وحدهم يستطيعون أن يروا وجه الإله الحق.

❋ ❋ ❋

الكتابة عن تاريخ باعة الأحلام ستظل دومًا قاصرة عن نقل التفاصيل... أغلب الكتب تفترض نظريات منقولة عن بعض الحكايا الشعبية... ميراث من النقل غير الدقيق... والأكيد أنها لا

يمكن أن تقدم وصفًا حقيقيّا لما كان يحدث... الكثير من الأمور ستُفقد طى النسيان... لو كُتب تاريخ للجحيم لا بد أن يبدأ من تلك اللحظة في الغرفة الداخلية للدكان... كان يجلس وسط الكريات المصمتة... عيناه مغمضتان... يمتلك بائع الأحلام القدرة على التواصل مع الأرواح بدون كلام... الأمر لا يحتاج إلى طقوس محددة... فقط عليك أن تفهم ماهية الأشياء وتملك مفتاح الدخول إليها... بعدها سيصبح الأمر أكثر سهولة... البشارة الثالثة حملتها إليه الرياح... الأمور بدأت تدخل آخر مراحل جدها... فراغات الغرفة تبدأ في الامتلاء بأجزاء وثنايا بشرية... تفاصيل مشوشة لا تستطيع عين الرائي أن تُخرج منها مشهدًا متكاملًا... وحده بينها لم يهتز له جفن... كان يعرف أن الجزء مهما انفصل عن الكل لا يفقد اتحاده به أبدًا... أجزاء الأرواح التي كانت ثمنًا لأحلام تساعد أصحابها على العبور بأرواحهم والنجاة من برزخ الجحيم... هي أيضًا التي ستدفعهم دفعًا نحو فتح بوابات الجحيم... الأمر ليس معقدًا كما يمكن أن يظن البعض... هو يعلم أنه لكي يدرك مازن الحقيقة، عليه أن يمر بمراحل ثلاث بدأت الأولى عندما جذبه نحو الدكان وأراه ما لم يكن يتخيل... المرحلة الثانية ستتم عندما يأتى إليه ليسأل وسيجيبه... الحقيقة أن نقل الرسالة تلك المرة لن يكون مباشرًا كما جرت العادة من قبل... ربما لن يفهم مازن الإجابات عندما يسمعها... الأكيد أنها ستمر بفترة حضانة في عقله

حتى تختمر ويؤمن بنفسه قبل أي شيء آخر... تلك النعمة خلقها الله في باعة الأحلام... المرحلة الثالثة هي ما كان يحضر لها الآن... كان يدبر عملية قتله على مرأى ومسمع من الجميع... وخصوصًا مازن... لا بد أن يراه وهو يسحب عنوة من دكانه... لا بد أن تلطخ دماؤه قفطانه الأبيض... وأن تدور رأسه المقطوعة على الأرض حتى تستقر أمام أقدامه... لا بد أن يرى الهلع مختلطًا بالحزن في عيون المحيطين به... رسالته الأخيرة التي أرسلها عبر أجزاء الأرواح، التي تحيط به في الغرفة كانت واضحة... هو لم يكن أكثر من وسيط يمهد الطريق للقادم... مازن هو القادم... لا بد أن يدرك الجميع أن مازن هو القادم... هو مفتاح الخروج من الجحيم قبل فوات الأوان... سيتركه بعدها يتخبط في طرقات المدينة ليرى بعينيه البؤس الذي تعانيه... ثم سيأتيه مرارًا وتكرارًا في أحلامه... سيدفعه دفعًا نحو الغرفة الداخلية الخفية من الدكان.. سيجعله يقرأ كتاب باعة الأحلام المقدس ليفهم... الفهم سيمنح مازن القدرة على تحقيق الهدف من وجوده على الأرض... يعلم أن مازن يدرك منذ زمن أزمته مع الوجود... يبحث عن الغرض منه ومما يفعله... لذا سيدرك الأمر بعدها بسرعة... سيفهم أنه حكاية ستنهي فصول الكتاب الكبير في بضع صفحات... سيفهم أنه مجرد ضيف على هذه الأرض... ضيف خفيف... لكنه ضيف مهم... ومهم جدًّا.

❊ ❊ ❊

عند غروب الشمس يتلألأ جبل الفيروز، ويمنح الكون المحيط به مزيجًا من الرهبة والجلال... يجبر قلوب مريديه على الارتجاف وجلًا... كانت تخطو بثبات على الرمل الصفراء الناعمة... عيناها معلقتان باللوحة البديعة المعلقة في السماء... أحمر الشمس الغاربة ممتزجًا برمادية سماء تحاول أن تظل محايدة بين معركة النهار والليل... يخترقها فيروزية صخور جبل عتيق يكسر بشموخه محاولات الحياد... يدها تلمس من حين لآخر بعفوية شديدة بيت ولدها... هي تدرك عبثية ما تفعل... لأنها لن تشعر بشيء لبضعة شهور... ربما كانت تحتاج أن تمنح حلمها الساكن في تجاويف رحمها بعض الأمان بمعيتها لروحه، التي تنمو... وربما كانت تحتاج لأن تطمئن نفسها بحقيقة وجوده الذي طال انتظاره... عند سفح الجبل دارت في محيط دائرة غير منظمة لتصل إلى فجوة لا يراها إلا العالم بوجودها مخفية بعيدًا عن أعين المتطفلين... تمتمت ببعض من طلاسم الأمان لكي تتمكن من اختراق وسائل الدفاع، التي تحيط بمدخل المذبح الرخامي... مزيد من الحماية لقدس الأقداس المخفي بجدارة داخل جدران الجبل الصخرية... لا يمكن السماح بأي وسيلة لاكتشاف وجود هذا المكان... مركز الكون... حيث تدور الأرض وحولها السماء من أجل إكمال رسالة حواء الأساسية على الأرض... خطت بقدميها بعد أن تجردت من نعليها المصنوعين من الجلد... وخلعت ملابسها كاملة... جسد حواء هو

أكثر دلائل مهارة الصانع وحرفيته... وجسد نوال هو النموذج الحي الباقي حاليًا لإثبات هذه المهارة... لا خجل في حضرة الجدة الكبرى... لا مكان لأردية البشر أمام المذبح... جلست على ركبتيها أمام المذبح تنظر نحو الجدة الكبرى المنهمكة في تلاوة صلاتها المقدسة، التي تتواصل بها مع كل التركيبات الأنثوية المستترة في تفاصيل الكون الواسع... جلست تتأمل وتفكر لحين انتهاء الصلاة... لم يفهم الكون حواء كما ينبغي... الفكرة الذكورية التي شاعت في تحريف تأويلات الكتب السماوية عن أنها خلقت من أجل أن يستمتع آدم ليأنس بمعيتها في الجنة، التي كان وحيدًا فيها خاطئة... تتذكر جدتها الكبرى، وهي تلقنها التاريخ الحقيقي لنسلها... تتذكر لعبة الخيال التي كانت تطلب منها أن تلعبها لكي تجيب هي بنفسها عن الأسئلة... كيف كان سيصبح شكل الكون لو لم تكن هناك حواء؟!! حواء حلم الاكتمال الذي خلقه الله ليزين به الجنة... الضعف الذي تملك طينة آدم جعله يحملها التركة الأكثر ثقلا، قبل أن تنزل درجات السلم الواصل من باب الجنة للأرض... أفاقت من شرودها على صوت الجدة الكبرى يناديها لتقترب... جلست بين ساقيها وهي تحني رأسها... الكائنات الأكثر رقيًا من الجنس البشري كحواء تستطيع التواصل بدون استخدام اللغة أحيانًا... نوال في حضرة الجدة الكبرى لا تتكلم... تبسط راحة يديها على فخذ الجدة المثني أسفل جسدها الخفيف... ارتعاشات غضون الجلد المترهلة على

وجهها لا تصل لعيني نوال المغمضة في خشوع... القاعدة تقتضي دومًا اختيار العهد الأنسب لحواء التي تكونها... لا يجبرها أحد على أن تختار... هي تمنح نفسها طواعية لرسالة السماء الأزلية... الدم وحده هو ما يحل العهد... الجدة الكبرى كانت تعلم أن قوانين معادلة نوال قد اختلت بعد أن فتحت تربة رحمها أبوابها لاستقبال الحياة... الدم تلك المرة لن يفلح لكسر العهد... هناك عامل إضافي سيدفع ثمن جرم لم يفعله... المحصلة للمعادلة لن تكون منضبطة أبدًا... فتحت عينيها وأبعدت الكف المنبسط على فخذها ووضعته على قلب نوال... وهي تغمض عينيها فتخترق حُجب الجلد واللحم والعظام لتصل إلى داخل تجاويفها البعيدة... تتمتم بكلمات تتعالى بلا صوت لتدور بين ثنايا الأحجار المحيطة بالمذبح... يرتفع جسد نوال نحو سطح المذبح الأملس... الجدة الكبرى ما تزال على الأرض تتمتم بلا صوت... جسد نوال يستقر مصلوبًا على المذبح في وداعة واستسلام... نوال كانت تعلم أن عليها دفع الثمن وحدها... قطرات الدماء المنسابة من معصمها المفرود بزاوية عمودية مع جسدها العاري.. قربان مناسب لتجديد عهودها مع السماء... يرتفع جسدها بروية من على المذبح ويستقر بجوار الجدة الكبرى، التي توقفت تمتماتها بعد تمام طقس الغفران... وضعت يدها على بيت ولدها لتُعرف حواء الجديدة عليها قبل أن تمنحها بركتها... الأدوار لا بد أن تُحفظ منذ اللحظات الأولى للوجود... قبّلت نوال يدها قبل أن

تستقيم لتغادر نحو رحلتها الجديدة... وجهها البدر يضيء السماء... على باب قدس الأقداس تردد صوت الجدة الكبرى كما لم تسمعه من قبل... صوت حواء أصيلة نحتتها خطوب الزمن... الصوت ظل يتردد مصاحبًا لنور وجهها الجديد نحو طبقات السماء العليا... كانت الكلمات تحمل الميلاد الجديد لحواء الخصبة التي ستكمل الرسالة... ستكونين منذ الآن مريم... إنى سميتك مريم.

❊ ❊ ❊

١١

قد تسمع من العالم أن المكان والزمان شيء واحد أو أن المادة ليست جامدة على الإطلاق. ولكن هذا لا يؤثر كثيرًا على فهمك كما لن يؤثر لا كثيرًا ولا قليلا على تجاربك فيما ينطوي عليه كل ذلك. حقّا كل مادة قابلة للانقسام، دعنا نقول، إلى ما لا نهاية. ولكن في ضوء معظم الأغراض العملية هناك حد لعدد الأقسام التي تستطيعها مع قطعة من الشكولاتة. إذا كان لها أن تقوم بالوظيفة التي تتوقع منها أن تقوم بها، وبالتالي فأنت قد ترى في يدك قطعة شكولاتة من جانب، ومن جانب آخر ترى فيها شيئًا تريد أن تقسمه إلى أكبر عدد من الأقسام تستطيعه. ولعل الذهن الإنساني يميل إلى التعميم انطلاقًا من الأدلة الجزئية، إلا أن الصوفيين يعتقدون أنهم قادرون على اختبار الأشياء في خضم التجريب بصورة أكمل.

وتلقي قصة صوفية تقليدية بعض الضوء على أحد جوانب المسألة، وتكشف عن الصعوبات التي تقض مضاجع العلماء أنفسهم، عندما يعرضون للصوفيين بغية فهمهم عن طريق تطبيق مناهج محدودة للدرس:

ألزم أصحاب سيرك جوال الفيل، الذي يستخدمونه في بعض ألعابهم مربوطًا على مشارف بلدة لم تكن تعرف الأفيال من قبل.

وتوجه أربعة من أهالى البلدة، كي يروا ما إذا كان في وسعهم أن يلقوا نظرة قبل غيرهم من الأهالي على تلك "المفاجأة"، التي سمعوا بها ويخفيها عنهم أصحاب السيرك. وعندما وصل الأربعة إلى المربط لم يجدوا أي مصدر للضوء. صار لزامًا عليهم بالتالي أن يجروا تحرياتهم في حالك الظلام.

قال الأول الذي لمس "زلومته"، إن الفيل لا بد أن يكون أشبه بخرطوم. وانتهى الثاني الذي لمس إحدى أذنيه أنه لا بد أن يكون مروحة. أما الثالث فلقد استطاع أن يشبهه بعمود حي بعد أن لمس رجله. وعندما وضع الرابع يده على ظهر الفيل رسخ في خلده أنه نوع ما من أنواع العروش. وهكذا لم يستطع أي من الأربعة أن يكوّن صورة كاملة، وعن طريق الجزء الذي لمسه كل منهم، استطاع وحسب أن يشير إليه في ضوء ما يعرف بالفعل من أشياء وبذلك انتهى مسعاهم إلى الفوضى، ولو أن كلا من الأربعة كان مؤمنًا راسخ الإيمان بما يظن أنه الحقيقة. وبالتالي لم يستطع أي شخص من أهالى البلدة الآخرين أن يقف على حقيقة ما حدث، وما هي التجربة التي مر بها هؤلاء الفضوليون .[٧]

❋ ❋ ❋

الفضول داء بشرى أصيل... رغم أن البشر يتنصلون من حصرية امتلاكهم لهذه الصفة بابتكار أمثال مختلفة عن أن الفضول هو الذي قتل القط... القط أبدًا لم يكن فضوليًا.. ربما كان أكثر احتياجًا للطعام من التفكير بفضولية... مازن ربما كان يظن أن فضوله هو ما يدفعه للذهاب إلى الدكان مجددًا... هكذا كان يفكر بينه وبين نفسه على مائدة الإفطار، التي حضرها يوسف بينما كان ينام عميقًا بفعل الكحول الذي شرباه سويًا أمس... رغبة يوسف في الشرب جعلته يؤجل الذهاب للدكان لليوم التالى... لم يسأله من أين أحضر هذا الماء المقدس... كان يدرك أنه سيكذب عليه وهو لا يريد أن يستمع للأكاذيب... أحيانًا الجهل بالأمر أفضل من إجبار الذات على هضم حفنة من الأكاذيب سيئة الإعداد... كوب القهوة الثاني أزال آثار الكحول تمامًا... أخذ يتأمل يوسف وهو يأكل بنهم... الكلمات تتناثر من بين بقايا الطعام التي يلوكها بين فكيه... يحكى لمازن ما لم يعرفه أحد من قبل... مازن ربما لم يكن مثل غيره من الغافلين المقيمين بين تخوم تلك المدينة الكبرى بعبثيتها المقيتة... لكنه كان قد غادر وظيفته قبل الهوجة الكبرى، التي هدمت الجزء الظاهر من جبل ثلج النظام السابق فلم يكن يملك التفاصيل... يوسف كان على خط المواجهة... يوسف نموذج مثالي لضابط الأمن المطيع الذي ينفذ الأوامر بمنتهى الدقة، مهما كانت درجة شذوذها وعدم آدميتها... الأنظمة الهشة تحتاج إلى آلات بشرية مميكنة

ومعدلة لكى تنفذ... فقط تنفذ دون أسئلة ولا أفكار ولا ألم أو مشاعر آدمية... يوسف كان من كبار الآلات التي استخدمها النظام السابق... ليلة أحداث الاضطراب، التي عصفت بالعاصمة كان مازن خارج البلاد ضيف شرف لأحد الأحداث الثقافية... ليلة الاضطربات يوسف كان يجلس في غرفة مكتبه تتوالى عليه المكالمات الهاتفية من خطوط خاصة تصله بمكاتب اتخاذ القرار في نظام يوشك أن يلفظ أنفاسه الأخيرة... لم يكن يدرك أنهم يعلمون أن النهاية قريبة... وكان هو أيضًا لا يدرك أنهم سيقفزون من المراكب قبل احتراقها... كان أيضًا لا يعلم أنهم يملكون قوارب مطاطية ستنقلهم بعيدًا عن الخطر... وسيبقى هو وأقرانه ليحترقوا كقرابين سيرضي بها جموع الغاضبين قبل أن يعود رؤساؤه بقواربهم من جديد... سيوهمون الناس أنهم رسل العهد الجديد... هو فقط كان يعلم أنه غدًا صباحًا سيكون على رأس كتيبة من العبيد، الذين يعملون تحت إمرته مدججين بكل أنواع السلاح ليقتلوا بلا رحمة ولا هوادة، كل الأحلام التي سيرونها تلمع في العيون الغاضبة... توقف عن الأكل ليشرب رشفات متتالية من كوب الشاى البارد، الذي يرقد بجواره بلا أي أهمية... أخبر مازن أنه لا يتذكر كم قتل من الأحلام... وكالات الأنباء لم تكن تحصي غير جثث القتلى من البشر... لم يهتم أحد ليُحصي الأحلام المهدرة على طرقات مدينة شائخة... يوسف لم يكن يتخيل أن هناك أحلامًا تملك القدرة على

الصمود أمام أسلحته المتطورة... أخبر مازن أن سيل الأحلام لم يكن يتوقف أبدًا... حتى أنه فقد قدرته على الثبات... عبيده تركوا أسلحتهم في مواقعها واختفوا في ظلام الليل... هو لم يكن يستطيع الهرب... ولم يبق لديه القدرة على القتل... توقف في لحظة ما عندما واجه نفسه... لم يخش أن يقتلها ولكنه لم يعد يقوى... الظلام يمتد ليشمل روحه ويغلفها ليعزله عن الكون الخارجي... تنهد وهو يخبر مازن أنه استيقظ بعد ليلتين ليجد نفسه معلقًا من أقدامه في عمود على قمة العقار، الذي اتخذه هو وعبيده مقرًّا لمهمتهم لإطلالته المميزة على الميدان الواسع... اختفى بعدها ليراقب من بعيد ما حدث بعدها... لم يكن يستطيع أن يسير وسط الناس كثيرًا... فك أربطة القماش التي كان يلفها حول جبهته على طريقة سكان الجنوب... على جبهته كانت ترقد باستكانة حروف حفرت بعناية لتعبر فوق الزمن... أربعة حروف تشكل الوصمة، التي ظل يختبئ منها يوسف طوال السنوات العشر الماضية التي مرت على ما حدث... خائن كانت تعبر عن مصيره الذي كُتب عليه أن يكونه مهما حاول أن يفعل.

❊ ❊ ❊

الخوف البشري من الموت في الأغلب مركب من عدد المشاعر المرتبطة بالخوف، فهو خوف من المجهول... خشية من الفقد... هلع

من الوحدة في برزخ النسيان... بائع الأحلام لا يعرف الخوف... لم يُخلق بهذه التركيبة من المشاعر المعقدة... أو ربما لأنه يعلم مصيره بعد انتهاء مهمته.. ولا يملك أي روابط بأي شخص على كوكب الأرض ليخشى أن يفقده، ولن يكون وحيدًا في سماء تمتلئ بسابقيه من أصحاب التكليف بهذه المهمة الشاقة.. لذا رغم أنه كان يعلم أن مشهد وفاته سيتم في غضون ثلاثة أيام لم يكن خائفًا.. كان يجلس ممددًا قدميه أمامه ساندًا رأسه على الحائط الخشبي، الذي يكون جزءًا من الواجهة الأمامية لدكان أحلامه المتنقل... يطعم خلاياه بعضًا من دفء الشمس الذي لن تذوقه مجددًا.

الأفكار تدور في رأسه مرارًا وتكرارًا.. لقاؤه الوشيك مع مازن يشغله منذ الصباح.. ذكريات استلامه للرسالة تراوده مختلطة بتأويل البشارة.. خلف جفونه المسبلة يرى الفراغ الذي تلقى فيه الوصية... أستاذه كان شديد الوضوح... يسترجع كلماته؛ لأنه لا بد أن ينقلها كاملة قدر الإمكان لمازن... أحيانًا تكون الصورة أكثر ضبابية مما يمكن تخيله.. سيكون عليه أن يصفي ذهنه لكي يرى ما وراء التفاصيل.. سيظن أحيانًا أن الأحلام محض خرافات، أوهام، أكاذيب.. أو محض تمنيات ضائعة.. لكن الحقيقة التي سيعلمها فيما بعد أن لكل حلم صفته وشخصيته المستقلة.. في الفاصل بين اللاوعي والوعي تقع مدينة الأحلام.. الأرض الأكثر خصوبة للأرواح.. تبني على الخرافات قلاعها وترفع من الأوهام

أبراجها الحصينة؛ لتخفي خلفها الأكاذيب وترفع رايات التمنيات الضائعة لترفرف يمينًا ويسارًا في مساحات غير مطروقة.. لا بد أن يدرب نفسه ليتمكن من أن يحل تراكيب هذه الأشياء ليكشف جوهر الروح المختبأة فيها.. الرسالة التي حملها على عاتقه طوال القرون الماضية... وسيدفعها دفعًا لتستقر على كتف مازن في الوقت المناسب ليخلص آخر ما تبقى من الأرواح الحرة... مازن سيكون المخلص.. هو فقط يمهد له الطريق... يعمد كيانه ليكتسب الطهارة المطلوبة ليتكلم بإسم الإله.. باسم الأحلام إحدى معجزات الله على الأرض.. مازن سيقود جيش الأرواح لتخرج من براثن الجحيم الذي تقترب نيرانه من الاشتعال.

❊ ❊ ❊

ذاك الذي أسعده الحظ وبلغ حدود الإشراق... يعرف أن السفسطة من الشيطان والحب من آدم.[٨]

❊ ❊ ❊

رن هاتفه المحمول بنغمة موسيقية لوصول رسالة نصية... قطع الحديث أحادي الجانب من طرفه لطرف يوسف وتحرك نحو المنضدة المستقرة بالجانب البعيد من الغرفة... تحرك وهو يدق

بخطواته على الأرض لينعم بمزيد من الثبات... هو لم يكن قد فقد اتزانه بعد.. لكنه يعترف أن نوع الماء المقدس، الذي يحضره يوسف يدير رأسه بعض الشيء كلما شرب منه.. قرأ الرسالة بتمهل وأعاد قراءتها مرارًا وتكرارًا قبل أن يستند إلى الجدار وهو يشعر بأن الأرض تدور تحت قدميه... الرسالة كانت عبارة عن جملة واحدة من نوال (أحمل في أحشائى طفلك).. طلب من يوسف أن يأتيه ببعض الماء النقى ويعد له كوبًا كبيرًا من البن المغلي ليستفيق وجلس ليعيد تأمل الجملة مجددا.. هو لا ينكر أن الجملة ربما تحمل قدرًا كبيرًا من الصحة... بل ربما كانت هي الشيء الأكثر صحة فيما يخص علاقته بنوال... ستون ليلة قضاها بين ذراعيها يمارسان طقوس العشق والغرام، كما لم يعرفها أحد من قبل... هي لا تحب استخدام وسائل الأمان ولا هو... لم ينقطع ولو لليلة واحدة عن غزو أراضيها الحصينة في أكثر النقاط بعدًا خلف الأسوار... كيف فاته الأمر... أخذته النشوة بجسدها الريان بعيدًا، ففقد قدرته على تمييز الأمور بعقله... ماذا عليه أن يفعل الآن.. ؟! بالطبع لا يمكن أن يتنصل من هذا الجنين ويحمّلها وحدها خطيئة لم ترتكبها... يدرك أنه يمر الآن بمرحلة من عدم الاتزان، وأن خطواته على أرض الحياة غير مستقرة... يدرك أيضًا أنه يحتاج للكثير من الصفاء الذهني والعقلي لكي يتمكن من التواصل مع ذاته الداخلية؛ ليتمكن من الإجابة عن السؤال الذي يحيره بشدة منذ

ليال... يوسف يجلس بالقرب منه يتأمله ببعض الريبة.. هو لا يجرؤ على السؤال عن طبيعة الرسالة النصية.. كما أنه لا يدرك ما يستعر بداخله من حيرة... الفروق الزمنية بين روحيهما بعيدة كل البعد... يوسف آلة جبلت لكي تنفذ... مازن روح حرة تطير لتعانق السماء بلا قيود.. فكر كثيرًا في أن يُحدثه.. ولكنه كان دومًا يفقد القدرة على الكلام، كلما فكر في مشكلته الحقيقية... الكينونة.. أكون أو لا أكون تلك هي مسألة الحياة الأكثر وجودية وتراجيدية على حد سواء... كيف يمكن لشخص مثل يوسف أن يفهم أزمة مازن ليساعده... مازن يعلم أن يوسف فقط يمتلك قدرًا من اليقين المطلق بقدراته المختبئة خلف الجسد الضئيل الذي يمتلكه... ربما لم يتمكن بعد من إدراك مصدر هذا اليقين... ربما اكتشف شيئًا من خلال الوقت، الذي أمضاه في مراقبة حركاته وخلجاته وحساب عدد الأنفاس التي يسحبها من حجم الهواء... تحرك من مكانه صاعدًا السلم نحو الغرفة العلوية... طلب من يوسف أن يستعد للخروج بعد نصف ساعة كحد أقصى... أرسل لنوال رسالة نصية مختزلة يطلب منها الحضور إليه في العنوان الذي أرفقه في الرسالة. كان يحتاج إلى الخروج ليتنفس هواءً نقيًا.. قوة جذب غير مفهومة تجذبه نحو الدكان الغريب الذي شغله... يشعر أنه سيجد كثيرًا من إجابات أسئلته بين جدرانه الخشبية... يحتاج وجود يوسف فقط ليستخدم ذاكرة التفاصيل التي

يمتلكها.. لم يكن يفضل أن يواجه نفسه، إنه يخشى الحقيقة، التي يمكن أن يكتشفها هناك.. لكنه كان يعلم جيدًا أن مجيء يوسف برفقته سيمنحه بعضًا من اطمئنان المعية والرفقة.

❊ ❊ ❊

١٢

بعد ذلك ذهب يسوع وتلاميذه إلى إقليم اليهودية. فأقام هناك معهم، وكان يُعمد الناس. وكان يوحنا أيضًا يُعمد في منطقة عين نون قرب قرية ساليم. فقد كان هناك ماء كثير، وكان الناس يأتون ويتعمدون هناك، إذ لم يكن يوحنا قد سجن بعد. وحدثت مجادلة بين بعض تلاميذ يوحنا وبين رجل يهودى حول مسألة الاغتسال الطقسي. فجاءوا إلى يوحنا وقالوا له: "يا معلم، لقد شهدت عن ذلك الرجل، الذي كان معك على الضفة الشرقية من نهر الأردن. وها هو أيضًا يعمد الناس، والجميع يذهبون إليه!".

فقال لهم يوحنا: " لا يستطيع أحد أن يأخذ شيئًا ما لم يعط له من السماء. وأنتم أنفسكم تشهدون على أنى قلت: أنا لست المسيح، لكن الله أرسلني قبله. العروس للعريس، أما إشبين العريس فيقف منتظرًا أن يسمع صوته. ويفرح كثيرًا، حين يسمع صوت العريس. وقد اكتمل الآن فرحي بمجيئه. ينبغي أن تزداد أهميته وأن تنقص أهميتي".

وتابع يوحنا فقال: "الذي يأتي من فوق يكون فوق الجميع. أما الذي من الأرض فإلى الأرض ينتمي، ويتكلم كلامًا أرضيًّا. الذي يأتي من السماء يسمو على الجميع. فهو يشهد بما رأى وسمع. وما من أحد منكم يقبل شهادته. أما من يقبل شهادته فهو يقر أن الله صادق؛ لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله. فالله يعطي الروح للابن بلا حد. الأب يحب الابن، وقد وضع كل شيء في يده. فالذي يؤمن بالابن يملك حياة أبدية، أما الذي لا يؤمن بالابن فلن يرى تلك الحياة، ولن يُرفع عنه غضب الله".(٩)

❊ ❊ ❊

الطريق إلى الدكان لم يكن طويلا... ربما خطواته البطيئة المثقلة بالأفكار التي يحملها على كتفيه منحته بعدًا زمنيا أكبر من الحقيقي... ربما كان يوسف السبب بتوقفه المتوالي أمام الدكاكين، التي تملأ السوق الذي يحتل جزءًا غير قليل من الطريق، الذي لا بد أن يسيروا فيه ليقطعوا البلد خروجًا نحو أطرافها... يوسف كان يرغي ويزبد بأحاديث متفرقة... لم يتخلص بعد من خصائص المراقبة المستميتة والاستغراق في سمع التفاصيل وتحليلها كيفما يتراءى له... الكثير من شئون البلدة عرفها يوسف في وقت قصير... أخبر مازن بعدة جمل قصيرة عن أزمة حادة تعصف بهدوء القرية... مازن لم يكن يهتم كثيرًا بالتفاصيل... مشاكل القرية لا

تختلف في نظره عن مشاكل باقي القرى والمدن المحيطة... كلها بالنسبة له أجزاء تشكل في مجموعها صورة المأساة التي يعيشها الجميع... وربما لو تجرد يوسف من التفاصيل لاستطاع أن يدرك أن مأساة الجنس البشري تكاد تتطابق في الكثير من الشئون... ما الذي سيضيره إن كان هناك أحد أثرياء القرية قد طمع في الزواج من زوجة أخيه، التي لا تحل له في الدين الرسمى للدولة.. ولا في أي شرائع هبطت على الأرض من السماء... فتخلص منه ليحصل عليها!! ماذا يعرف بنو البشر عن الله؟!! كل ما نحن فيه الآن هو محض تأويلات وإضافات بشرية مقيتة؛ بعضها ينسب لنزعات ذكورية مسيطرة... والبعض الآخر كان بغرض التحكم في الثروات والأرواح... كلها أقنعة مزيفة... أسهل الطرق لفرض القوة هي أن تتحدث باسم الإله كأنك وحدك الذي حصلت على التفويض الكامل منه... أسهل الطرق لكي تقوض أي فكر أو رأي هو أن تجعله في صدام دائم مع العقائد والإيمانيات الخاصة بالبسطاء... ماذا سيضير مازن أو يوسف أو أي شخص آخر من هذا الزواج ... لا شيء في الحقيقة... الوقوف في وجه الخطأ يحتاج إلى روح حرة شجاعة، وهو يرى أنهم يعيشون الآن وسط أشباه البشر من المتحولين للموت أحياءً... كلهم يتحدثون عن الشيخ، الذي يردد في كل مكان بطلان هذا الزواج دون خوف ولا خشية... مازن ربما يقف في صف هذا الشيخ أيضًا.. سيسأل يوسف عن التفاصيل

بعد الانتهاء من زيارة الدكان... يوسف يردد أن هذا الشيخ قد أصابه مس من الجنون.. يوسف لا يملك الوعي الكافي ليميز بين الحق والباطل.. الحق من وجهة نظره مرادف لما يريده صاحب السلطة.. الباطل هو ما يضر مصلحة السلطة... يلخص الأمر في أن القصة كلها رجل يملك مالا ونفوذًا ويشتهي امرأة لا تحل له، لكنها لا تمانع من أن تسلمه نفسها... شأن يخصهما... ما الذي يدفع هذا الشيخ المأفون ليُدخل نفسه طرفًا في لعبة لا تخصه... مازن رغم نفاد صبره كان يحاول أن يشرح له أن الصمت أمام الباطل يمنحه شرعية الحق.. وهي بداية الخيط الرفيع الذي يفصل بين الحياة والجحيم... يوسف كان يحاول أن يستوعب قدر إمكاناته لكن الأمر لم يكن سهلا... يوسف ربما لا يستطيع أن يدرك المنطقة التي يحدثه منها مازن... منذ أن كان يراقبه كجزء من مهمته الأخيرة في الأمن الوطني، وهو يراه قديسًا رغم احتياجاته البشرية.. يشعر في قرارة نفسه أنه منزه عن الخطأ؛ لأنه يفعل كل شيء بصدق... الصدق كان بالنسبة ليوسف عملة نادرة الوجود في مدينة الموتى التي كانوا فيها... يؤمن أن الخلاص من الجحيم، الذي سيعيشون فيه قريبًا سيأتي على يد مازن؛ لذا قرر بعد أن استقر الأمر في البلاد وتمكن من الخروج من مخبأه أن يتبعه... سيكون له خادمًا مطيعًا.. وسيحاول أن يكون له تلميذًا.. لكن الأكيد أنه لن يفارقه أبدًا... الدكاكين أسلمت الطريق الترابي إلى الفراغ... يقطعه من

حين لآخر صوت صرصار الحقل يأتي من بعيد... وحفنة من الأشجار المتناثرة بغير ترتيب على الجانبين.. مازن ملّ الحديث واستغرقته أفكاره... يوسف يتبع خطواته وهو يتأمله من الخلف... هيبة الصمت، الذي يرافق هيبة حضور مازن لديه جعلته يطبق شفتيه ويستمتع بالأصوات تتردد بلا أدنى فائدة داخله... بقعة الضوء الصادرة من الدكان القائم في آخر الطريق تزداد وضوحًا كلما ارتفع عدد الخطوات، التي يضربون بها تراب الطريق... مازن يسير بخطوات أسرع كلما اقترب من الدكان... يوسف يحاول أن يحرك أعضاءه المتراخية؛ ليلحق بسرعته وهو لا يفهم سبب الخطوات السريعة... يوسف لم يكن يدرك أن هناك قوى تجذب مازن نحو موطنه الأصلي... يوسف لا يعلم أن مازن هو بائع الأحلام المنتظر... مخلص الأرواح من برزخ الجحيم... مازن أيضًا كان مسلوب الإرادة يسرع خطاه، دون أن يفهم السبب يشعر بضربات قلبه تتسارع دون أن يعي أنها أعراض العودة للكل الذي خرج منه يومًا ما... دون أن يدرك أنه اقترب من الحصول على الإجابات التي أمضى سنواته الماضية في تحضير عقله وطرح الأسئلة.

❋ ❋ ❋

لم يكن يتخيل يومًا أن يفقد سيطرته على غريزته نحو الأنثى بهذا الشكل وهو الشيخ الكبير ذو الحظوة والنفوذ والمكانة الكبيرة... لكنه

لم يستطع أن يقاوم إغراءها... كانت كغير كل النساء التي قابلهن في حياته من قبل... يتأملها وهي تتمايل أمام عينيه في جذل شهي... ولا يستطيع أن يزيح عينيه عنها أبدًا... جعلته ينسى روابط الدم والأخوة والدين وكل شيء... هو الآن لا يفكر إلا في ثمار جسدها الفردوسي، التي توشك أن تتساقط عليه ليستمتع بمذاق شهدها غير المألوف لكائن أرضي مثله... كانت تدور أمامه في دوائر كاملة ومنقوصة تهز جذعها فتُظهر فرجها المنتوف الذي يلمع اشتهاءً وسط جبلين متوسطي الحجم من الشحم اللدن، الذي يتراقص مع أنفاسها المحترقة... قضيبه يكاد يخترق ملابسه من شده احتباس دماء رغبته الساخنة في أوردته... يأكلها شهوة بعينيه كما فعل أول مرة سقط عليها بصره بجوار أخيه في حفل عائلي.. رائحتها ظلت معلقة بأنفه تراوده عن نفسه في صحوه، أينما ذهب وفي منامه تأتيه تفسد عليه هدوء أحلامه... الغريب أنها أيضًا كانت تبادله نفس الأفكار أو هكذا ظن... السم الذي دسه لأخيه في طعام العشاء الذي قدمه له في منزله منذ أسبوع كان برغبتها وموافقتها أو هكذا ظن!! حلمتا ثدييها النافرتان كادتا أن تخترقا مقلتيه من شدة اقتراب صدرها الجائع من أنفاس وجهة الحارقة... كان يسمع همس كلماتها المشتهاة يتردد مخترقًا أذنيه ليدور ويدور بداخله حتى يصطدم برأس قضيبه، التي اكتسبت حمرة قرص شمس يشتهي الغوص في البحر ليمنح بتدفق أشعته ميلادًا جديدًا للنهار في مكان

ما... كانت تلقم شحمة أذنه بين شفتيها تلعقها لتزيد من هياجه.. كان لسانها المشقوق الذي ورثته عن حية آدم يتحرك مبللا رقبته بماء فمها، الذي ينتظر أن يتمتع بقطرات منيه المتدفقة كما تحب دومًا... كانت تشعله بنيران الشبق وهي تخطط أنها لن تطفئه... فقط ستغذي الحطب الكامن في جسده العجوز بحرارة جسدها الحي حتى تحكم قبضتها على روحه، كما فعلتها من قبل جداتها جيلا بعد آخر... دفعته ببعض العنف ليستلقي على ظهره، قبل أن تزيح الملابس الداخلية عن نصفه السفلي وتنفخ بشفتيها أرجوانية الطلاء بعضًا من حرارتها... تأوهاته المتعالية تخبرها بأن الشيخ العجوز يقترب من نشوته بفعل حركة لسانها المشقوق على قضيبه المتورم... توقفت فجأة وهي تزحف على جسده المتعرق صعودًا نحو أذنه... كانت تطلب منه أن يأتيها برأس المأفون الذي يشيع في القرية بطلان ما بينهما... العرق المتساقط بغزارة من جسده دليل دامغ على أن القيد قد تم إحكامه على رقبته، وأن طبيعة العلاقة التي ستنشأ بينهما ستكون قائمة على السيطرة... دفعها بعنف قبل أن يعتليها ويدفع قضيبه بشدة بين شفرات فرجها الغارق في موجات الرغبة العارمة... تعالت صرخاتها، وهى تشخر وتمخر لتختلط بتأوهاته وشخراته المتتالية وهو يسب المأفون والقرية والناس جميعًا... سكون حركاته بعد عدة دفقات متتالية من مائه الساخن لتمتزج بسوائلها كانت الاتفاق النهائي على ما سيحدث في

الغد... وعدته بأن رأس المأفون ستكون شاهدًا على ما ستمنحه إياه في ليلة ملونة من فنون الحب والعشق والغرام الجسدي الخالص.. حرّك جسده من عليها وعقله الباطن يعمل سريعًا لرسم الخطة، التي سينفذ بها الأمر وهو يرى مشاهد شفرات فرجها وهي تخترق بدفعات متتالية من قضيبه الذي لم يفقد بعد صلابته.

❋ ❋ ❋

اتفق جموع الباحثين في شئون باعة الأحلام على وضع تصنيف يحدد طبيعة باعة الأحلام بالنسبة لعناصر الطبيعة الخمسة الأساسية... الحقيقة أنهم في تلك الجزئية فقط استطاعوا الوصول إلى التشابه الكبير بين باعة الأحلام والطبيعة بفرضية نظرية بحتة.. لكنهم لن يتمكنوا أبدًا من تقسيم باعة الأحلام في قوائم وجداول بشرية... الموضوع أكبر من القدرات البشرية المحدودة... باعة الأحلام طبيعة كونية... الدليل المادي على وجود إله في السماء... السبيل الأكثر سهولة لاستمرارية الحياة على المحور الزمني الوهمي الخاص بها.. هم الحارسون بأرواحهم على مفاتيح الحقيقة واللا حقيقة... نسل آدم فقط لا يريد الاعتراف بالقصور الذي صاحب عملية تكوينهم الأولى، مما دفعهم دفعًا جيلًا بعد جيل للبقاء في الرمال المتحركة... يبنون حقائق من وهم أحلام معطوبة يتمسكون بها... كل هذا كان يدور خلف جفونه المغلقة وهو يجلس ممددًا

ساقيه على كرسي خشبي أمام الدكان... ينتظر أن يقطع مازن وتابعه يوسف المسافة المتبقية إليه... راودته ذكريات الحنين عن نفسه فاستسلمت روحه لأجنحتها فأصبح هنا وهناك... كان في حضرة سلفه العظيم... يجلس أمامه في استكانة يستمع منه بدون كلام.. يرى الصور تتراقص أمام عينيه... هو من طبيعة مشتركة من خصائص النار والهواء... يرتفع لهبه حتى السماء.. سلفه العظيم لم يفصح عن طبيعته، لكنها كانت من التراب الهادئ المستقر... أخبره عن خليفته الذي سيكون مشكلة كبرى.. اجتماع صفات طبيعتين يمكن قبوله؛ لأنهما يتمكنان من معادلة سلبيات بعضهما البعض مع مضاعفة تأثير المميزات... لأن الأمر اقترب من النهاية؛ ولأن سلفه سيكون الأخير في سلسلة الباعة سيجمع في سابقة لم تحدث منذ أن قرر الإله أن يخلق باعة الأحلام ويكلفهم بطبيعة المهمة... سيخرج بصفات تجمع بين النار والماء والهواء... الخلطة المناسبة لمواجهة الجحيم الذي سيحاربه... فتح عينيه ليتأمل مازن الذي وضع خطوته الأولى في مساحة المكان الذي يشغله بجسده المادي الممتلئ بروحه العائدة من رحلتها... ابتسم ليكسر حاجز القلق الذي لمحه واقفًا بينهما، قبل أن يبدأه الحديث وهو يرفع جسده من على الكرسي الخشبي ويتحرك نحو الداخل طالبًا منه أن يتبعه إلى داخل الدكان

فى الداخل كانت الأمور أكثر غرائبية بالنسبة لمازن... الكريات الزجاجية تضوي في تناغم مدهش بمزيج من الألوان، التي لم يسبق له أن يراها من قبل... لا يتذكر أنه رآها عندما حضر هنا المرة الفائتة ولا يفهم كيف يمكن أن يفقد تفصيلة بهذا القدر من الأهمية.. شك لوهلة أنه لم يأت هنا أصلا، وأن ما شاهده في تلك الليلة كان أحد أحلام اليقظة التي تراوده من حين لآخر.. قطع أفكاره صوت أتاه من الشيخ العجوز يحدثه بكلام يخترق روحه بعنف.. ليس عليك أن تهوى.. ستمنح الهوى دون حساب.. ستزرعه في أرحامهم مع كل دفقة مني ستخرج من ذكرك في لحظات الشبق الممتع... ستضعه بعيدًا داخل أرواحهم الحرة، التي ستحررها أحلامك الممنوحة دون حساب... ستكون أنت الهوى... ستصبح أنت الإله الواحد، والمخلص... وستكون أيضًا أنت المصلوب لتحررهم... كلمات تصنع زلزالًا يهزه بشده... كل شيء في المكان كان يتواصل مع روحه بطريقه غير مفهومة... كيف عرف عنه وعن نوال ويوسف، وهو الذي لم يقابله إلا منذ بضع دقائق!! الأسئلة كانت تلاحقه ولم تخرج من بين شفتيه... كان ما يراه ويسمعه كفيلا بإثارة كل مخزون الدهشة، التي لم يكن يتذكر امتلاكه لها من قبل... الغرف الداخلية الخفية، التي كشف له الشيخ عن ستارها... الحديث عن الرسالة والأحلام والموت القريب ورحلة المخلص المنتظر... دوامات أدارت الأرض من تحت قدميه، لم يخرجه منها حتى الهواء المنعش

الذي ضرب وجهه ليخبره أنه عاد من رحلته في عالم غير الموجود فكلماته ظلت تتردد في فضائه الخاص كل الوقت في طريق العودة مغطية على كل أسئلة يوسف.

بائع الأحلام كان يجلس بالغرفة الداخلية أمام كتاب الأسرار يكمل سطوره الأخيرة.. يرافق مازن في رحلته، دون أن يغادر مجلسه ودون أن يشعر هو به... تنهد لنفسه ببطء يتناسب مع وضع الاسترخاء الذي عليه جسده العجوز... مهمته تقريبًا انتهت... ساعة النهاية ستكون بعد ثلاث ليال من اليوم... حضور مازن الليلة كان البشارة الأخيرة... منحه الحقيقة المطلقة.. وحرية الاختيار... ونال منه دون أن يدرك هو مفتاح الراحة الأبدية.

❃ ❃ ❃

١٣

الاحتياج.. الكثيرون من بني البشر لا يدركون أنه محور للكون كله... العلاقات، الرغبات، الطموح، الخوف، اليأس، الحرب والحب كلها محض صور مختلفة من الاحتياج.. كانت مريم تدرك أن مفتاح الراحة يبدأ بفهم احتياج أنفسنا؛ لنتمكن من استيعاب احتياجات الآخرين من المتداخلين في حلقات حياتنا... ثم يستمر لإدراك طبيعة قدرتنا على تلبية تلك الاحتياجات... قبل أن ينتهي بإعلان هذا الاحتياج... هي كانت تدرك أن إظهار الاحتياج قوة.. لذا طوال طريق رحلتها كانت ترتب كيف ستخبره بأنها تحتاجه.. هي لم تكن تصطنع الأمر، فكل جزء فيها يحتاجه.. روحها تحتاجه لتأنس به.. أذناها تشتاقان إلى صوت رنين أحرفه على طبلتها.. جسدها يحتاج لأن يشعر بضمتها بين ذراعيه الخشنة... اكتمالها يحتاج لأن يندمج مع كائن آخر مكتمل ليخرج مزيجًا مختلفًا من الاكتمال غير مسبوق من قبل..

طرقت على الباب وهي تستعد لتلقي بجسدها بين ذراعيه... صدمتها كانت في أوجها عندما طالعت وجه يوسف الخالي من الملامح في الفراغ بين ضلفتي الباب... أخبرته أنها تريد مازن، فأزاح جسده ليفسح لها مسلكًا لتدخل وصوت مازن يتصاعد من داخل الغرفة

الداخلية يدعوها للدخول، جلست على الكرسي المقابل له، وهي تتأمل يوسف الذي كان يصب كأسين من شراب لونه يميل للاصفرار ويقدم إحداهما لمازن، قبل أن يستدير ليضع الكأس الثانية أمامها فيخبره مازن أنها لن تتمكن من الشرب الآن... ابتسامة خفيفة ارتسمت على زاوية مبسمها، لم تكن على ثقة من أنه صدق رسالتها رغم أنه أرسل يطلب حضورها.. بضع دقائق مرت تحاورا فيها بلغة الأعين، التي يجيدان استخدامها منذ لقائهما الأول... كانا يمضيان وقتًا ليس بالقليل، ينظر كل منهما للآخر دون أن ينبسا ببنت شفة ويتبادلان الكثير من الأفكار والأحاديث بالعينين فقط... فترة الصمت التي كانا يتبادلان فيها الحديث بدون كلام طالت لم يقطعها إلا صوته وهو يطلب من يوسف أن يغادرهما إلى غرفته العلوية وألا يزعج نومهما في الصباح... كانت تلك هي رغبتها التي نقلتها إليه عيناها واتفقت مع رغبته هو أيضًا.. كان يحتاج إلى جسدها الدافئ ليخلصه من برد أفكار العجوز التي لم يفلح الماء المقدس في طردها.. كان يشعر بالحنين ينبض في أوردة قضيبه المنتفخ... أخبرته أن فرجها يقطر ماء شهوتها، ينساب على فخذيها ببطء فيثيرها أكثر.. أخبرها أنه يشتهي أن يذوق ماءها وأنفاسها الملتهبة فابتسمت بجذل وهي تغمض عينيها نصف إغماضة من الإثارة.. تحرك من مجلسه ليحكم غلق باب غرفة الجلوس، التي كانا ما يزالان يجلسان فيها بعد رحيل يوسف...

استدار نحوها فوجدها عارية كما خرجت من بطن أمها، وكما كان يحب أن يراها دومًا... اقترب منها وهو يهمس في أذنيها أنها لن تستطيع أن تستمتع بعهر جسدها العاري طول الوقت هنا لوجود يوسف... فضحكت بنشوة وهي تخبره أنها يكفيها أن تلقي بعريها بين ذراعي عريه كل ليلة... ضمها بين ذراعيه ليشعر بحلمات صدرها النافرة تضغط على جلده، قبل أن يلقم شفتها السفلى بين شفتيه ويغيب عن أفكاره في قبلة حارة طويلة، تعانقت فيها روحه مع روحها في اكتمال أبدي لن يدركه الآن... أراحها على الأرض بعد أن تصاعد صوت تأوهاتها وباعد بين فخذيها فاخترقت رائحة مائها المنهمر أنفه لتضرب في قضيبه فيشتد اشتعال ناره... صوتها وهي ترجوه ليلعق لها فرجها كما اعتاد أن يفعل... رائحة مائها التي أهاجته كانت تجذبه نحوها جذبًا... فدفن وجهه بين ساقيها وطرف لسانه يداعب بظرها وشفتيها ليزيد من إيقاع تأوهاتها ارتفاعًا، كانت تشخر بين ذراعيه كما لم تفعل معه من قبل... ربما حرمان الغياب أو هرمونات الحمل هي السبب لم يهتم كثيرًا... هو لم يكن هنا كان أحدًا غيره... كلمات الرجل العجوز عن الحب وممارسته كانت تتراقص أمام عينيه فتدفعه دفعًا لاختراقها... حملها على كتفه وصعد نحو غرفته وهي تتلوى بين ذراعيه.. طرحها ببعض الرفق على الفراش، قبل أن يعتليها وهو رافع ساقيها على كتفه... صوتها تتأوه يأتيه من بعيد كأنه قادم من كوكب آخر... منحها

الحب كما لم يفعل من قبل.. ستكون تلك بداية رسالته التي لا يعرف عنها شيئًا الآن... أدارها على بطنها ببعض الرفق ووطأها من استها وهو يلف شعرها على ذراعه ويقودها، كما كان يقود فرسته الحرون في مزرعة والده... دقات قضيبه داخلها تتناغم مع دقات قلبها وصوت تأوهاتها في سيمفونية عزف تتصاعد نحو السماء لتفتح أبواب جنات الخلد، التي سيقضيان فيها ليلتهما... دفقات مائه الساخنة التي أغرقت جسدها كله واختلطت بدفقات مائها المتتالية، دون توقف رفعتهما سويًا على سحابة من الاسترخاء فغابا في نشوة سكر الاستمتاع حتى المنتهى.

❊ ❊ ❊

ثم فتح الحمل الختم الرابع، فسمعت المخلوق الرابع يقول: "تعال!" فنظرت، وإذا جواد أصفر شاحب يقف أمامي. وكان الراكب عليه يدعى "الموت" ويتبعه "الهاوية"، وكانا قد منحا سلطانًا على ربع الأرض، ليقتلا الناس بالحرب والمجاعة والحيوانات المتوحشة. ثم فتح الحمل الختم الخامس، فرأيت تحت المذبح نفوس الذين قتلوا لأجل رسالة الله ولأجل شهادتهم. فصرخوا بصوت عظيم وقالوا: "أيها الرب القدوس والحق، متى ستدين سكان الأرض وتعاقبهم لقتلهم إيانا؟"، وكان قد منح كلاً منهم ثوبًا

أبيض. وطلب منهم أن يتريثوا قليلا حتى يكتمل عدد جميع رفقاهم الخدام وإخوتهم الذين سيُقتلون أيضًا.

ثم فتح الحمل الختم السادس، فنظرت وإذا بزلزال عظيم قد حدث. والشمس أصبحت سوداء كلباس الحداد، والبدر أصبح كالدم. نجوم السماء سقطت على الأرض، كما يسقط التين غير الناضج عن الشجرة حين تهزها ريح قوية. وانقسمت السماء، وطويت كلفافة من الورق وزُحزحت جميع الجبال والجزر عن مواضعها. ملوك العالم وحكامه، وقادة الجيوش والأغنياء وأصحاب المراكز، وكل الناس أحرار وعبيد، اختبأوا في الكهوف وبين الصخور التي على الجبال، وقالوا للجبال والصخور: "أسقطي علينا، وخبئينا عن وجه الجالس على العرش وعن غضب الحمل! لقد حل يوم غضبه العظيم، فمن ذا الذي يستطيع الصمود؟"(١٠)

❊ ❊ ❊

طرقات يوسف المتتالية بعنف أيقظته من غيبوبة نومه.. هز مريم وهو يحاول أن يجمع تركيزه ليتذكر أي شيء... صوت يوسف القادم من خلف الباب دفعه ليطلب منها أن تستر جسدها العاري جيدًا، وهو يحرك أعضاءه الخاملة لينهض من على الفراش باحثًا عن أي شيء يستر به عري نصفه السفلي.. نظرة خاطفة لمحتويات الغرفة

المبعثرة جعلته يفتح الباب ببطء، ويخرج جسده شبه العاري من الفرجة الضيقة قبل أن يتمكن يوسف من رؤية بقايا المعركة التي لا يتذكر تفاصيلها... هبط معه السلم نحو المطبخ وهو يحاول أن يربط الكلمات المتناثرة التي تخرج بسرعة من فمه الكبير... وجه مريم الشاحب وهلع يوسف المصاحب لحديثه المتعجل أوقظ حواسه من سباتها... عجوز السوق هو نفسه عجوز الدكان... النيران تضرب بيوت البلدة كلها طوال الليلتين الماضيتين اللتين قضاهما بين ذراعي مريم العاريتين... العجوز تم اقتياده من أمام الدكان ليقضي ليلته في حظيرة دوار منزل عمدة القرية.. لا حديث لأهل البلدة إلا عن حكم الإعدام الذي سينفذه رجال العمدة على العجوز في وسط السوق بعد ظهر اليوم... التهمة كانت التعريض بشرف امرأة دون وجه حق... ارتدى ملابسه على عجل، وهو يبحث في ذاكرته القانونية عن تهمة بهذا التوصيف دون جدوى.. عقوبة الإعدام في القانون الجنائي لها ضوابط كثيرة.. حتى القانون العرفي الذي يحكم بعض الجماعات، التي تسكن أراضي دولتهم لا تحتوي على عقوبة بالقتل لتهمة كهذه... لا وجود لتهمة مثلها، فيما قرأ من كتب القانون أو التاريخ أو أي شيء... أين نحن على منحنى الزمن؟!! سألته مريم وهي تستند على ذراعه في طريقهما نحو ساحة البلدة يسبقهما يوسف، الذي يلهث لهاث حيوان ضاري ينتظر فريسته لتنفق قبل أن ينقض عليها... لم يكن يعلم حقًّا بماذا يمكن أن يجيب مريم.. كيف سيخبرها أن نفس الشخص الذي سيشهد مسرحية إعدامه الهزلية أخبره قبل وصولها بساعات أنه سيقتل

بهذه الطريقة؟!! كيف سيخبرها أن بوابات الجحيم قد فُتحت على مصراعيها، وأن النهاية وشيكة وهي التي تنتظر وليدها لتعيش معه حياة طالما حلمت بها في الماضي؟!!! كيف سيخبرها أنه ضحك ملء شدقيه قبل وصولها إلى حديث العجوز، الذي لم يكذب في حرف منه حتى الآن؟! كيف سيخبرها أن العجوز ألقى على كتفه رسالة لا يعلم كنهها ولا طبيعتها ولا كيفية العمل بها؟!!! كيف سيخبرها أنه ليس بالبشري الذي تظن أنه يكونه؟!! أوقف سيل الكيفيات عندما اقترب من الحشد المجتمع.. كف مريم التي تضغط على ساعده تخبره بتوترها وقلقها الشديد.. يوسف يفسح لهما طريقًا بجسده الضخم ليقتربا من وسط الساحة رغم امتعاض الناس... وسط الساحة كان العجوز مربوطًا في عمود خشبي مثبت في الأرض ينظر نحو الأمام، لكنه لم يكن يرى أحدًا.. وحده مازن أدرك أنه شعر بوجوده من بعض الراحة، التي كست ملامح وجهه الجامد رغم جلل الموقف.. البشر يخشون الموت... هو ليس ببشر... كما أنه يعلم أن موته لن يكون نهاية... أصوات الجمع ترتفع هياجًا بعد وصول العمدة ورفقته، لكن مازن والعجوز لم يسمعا كل هذا... العمدة أرغى وأزبد في حديث لم يكن مهمًا... الجمع لم يكن يهتم بالسبب فقط ينتظر أن يُنفذ الحكم ليشبع شهوته للدم الساخن... كف مريم يضغط على ساعده بشدة... العجوز يعيد عليه حديث الأمس دون أن ينطق به ... الصمت يطبق على تفاصيل المكان إلا من صوت فك القيود الحديدية التي تربط السجين بالعمود... جلاد العمدة يدفعه إلى الأمام ببعض العنف، لكنه يقاوم... يقف وسط

الساحة رافعًا رأسه نحو الحشد المتلهف قبل أن يرفع صوته مخاطبًا إياهم... كلماته لا تزال تتردد في الفراغ الخاص بمازن، رغم صوت هياجهم المستعر... مريم تدفن وجهها في صدره وهي تكتم نحيبها... دموعها الساخنة تلسع جلده وهو يمنع دوارًا يضرب كيانه كله... أخبرهم أنه بعد وفاته سيأتيهم من يمنحهم الفرصة الأخيرة للهروب من اللعنة... فقط من سيتبعه ويؤمن برسالته سينجو... البقية سيعيشون حياتهم أو ما يظنون أنها حياتهم.. بدون الأحلام... آخر كلماته هي ما سيظل مصاحبًا لمازن في غيبوبته التي لم يفلح في مقاومتها... وجه يوسف الأصفر رعبًا يختلط بوجه العجوز المنكفئ على ركبتيه على تراب أرض الساحة.. لا تشرق الشمس بلا أحلام... لا دفء بلا أحلام.. لا نوم بلا أحلام... لا حب بلا أحلام... يوسف يحمل جسد مازن على كتفه راحلًا، ومن خلفه مريم بخطوات مترنحة... تيار بارد بدأ يعصف بقلوب سكان البلدة قبل أجسادهم والعجوز ما يزال يردد كلماته دون توقف.. لا شمس بلا أحلام... لا دفء بلا أحلام... لا حب بلا أحلام.. الجحيم فقط هو ما ينمو في غيبة الأحلام .

❊ ❊ ❊

زدني بفرط الحب فيك تحيرًا
وارحم حشا بلظى هواك تسعرا
وإذا سألتك أن أراك حقيقة
فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
يا قلب أنت وعدتني في حبهم
صبرًا فحاذر أن تضيق وتضجرا
إن الغرام هو الحياة فمت به
صبا فحقك أن تموت وتعذرا
قل للذين تقدموا قبلي، ومن
بعدى، ومن أضحى لأشجاني يرى
عني خذوا، وبي اقتدوا، ولي اسمعوا
وتحدثوا بصبابتي بين الورى. (١١)

❊ ❊ ❊

وماذا يمكن أن أكون... أنا اللا أحد.. يطاردني طيف رجل لم أعرفه إلا مقتولا... أو عرفته حيًّا ولم أعرفه.. أهرب من النوم كي لا يزور أحلامي فيفسد رتابتها.... يراودني عن نفسي صحوًا فأراه في وجوه الجميع.. يوسف ونوال وأي شخص آخر... أحيانًا يأتيني كشبح بابتسامته الواثقة، كما كان يرسم على ملامحه وهو يجلس بهدوء على باب دكان الأحلام... وأحيانًا أُخَر تدور رأسه مرارًا وتكرارًا في مشهد عبثي لتستقر مجددًا تحت قدمي دون تعابير تُذكر إلا الهدوء... كيف يقتل المرء ولا يفزع... كلمات تتكرر بضرورة العودة إلى نقطة البداية... أي بداية يمكن أن أكونها في جحيم مستعر، أصبح يعيش من حوله والغريب أن أحدًا لا يدرك ذلك... استدار ليواجه مخاطبيه نوال أو مريم، كما قررت أن تسمي نفسها ويوسف... ملامح وجههما لا توحي بأنهما يدركان أبعاد مشكلته... يقترب من الطاولة التي تفصل المسافة بينهما ليصب لنفسه كأسًا من الماء المقدس، الذي يجلبه يوسف بلا انقطاع كأنه يملك مفاتيح نهر الخمر الهابط من السماء.. يجلس تحت قدمي مريم، وهو يعب من كأسه عبًّا ويداعب بطنها المتكور بعض الشيء.. ويشرد بعيدًا، تملأ روحه قصة لن تخرج لنور الحياة أبدًا سيضن بها على جمهور قرائه.. سيكتبها سطرًا سطرًا مع أنفاسه المتلاحقة، سيكتب في آخر سطور وصيته أن تطبع في نسخة وحيدة لتحرق مع

جثمانه ليختلط رمادهما معًا فوق بحر ثائر في إحدى نوات الشتاء العاصف.

يوسف يحاول أن يخرجه من حالة اكتئابه، التي لازمته طول الأسبوع الماضي فيخبره بأن الساعة تجاوزت الثانية عشرة بقليل، وأنهم أصبحوا فعليًا في يوم التاسع والعشرين من شهر فبراير...

أخبره كأنه لا يعرف أنه يأتي كل أربع سنوات.. وأن الأسطورة تقتضي أن يتمنى أمنية قبل انتهاء اليوم علها تتحقق.. مازن نظر لرفيقيه بعينين صبغهما السهر والإرهاق بحمرة دموية، قبل أن يغادرهما إلى غرفته ويغلقها عليه من الداخل مصطحبًا معه زجاجة كاملة من الخمر.. قرر أن يجعل اليوم حقيبة يلقي فيها أمنياته كلما تذكر شيئًا.. لعل سهم السماء إذا خرج يلتقط أيًّا منها في صعوده مجددًا سيضع فيها أولا رغبة أن يزوره هذا اليوم مجددًا بعد أن يتحول إلى صورة أخرى من الطاقة أكثر براحًا... سيتمنى أن يزوره التاسع والعشرون من فبراير القادم، وهو النبي المنتظر في أرض العشق اللا محدود.. نبي بلا أتباع وبلا رسالة وبلا أي إله... فتح حاسوبه المحمول وتصفح ملفاته الخاصة، وهو بين الوعي والغياب وتذكر أن اليوم لن يتكرر إلا بعد أربعة أعوام.. وتأمل من بعيد حقيبة الأمنيات، التي ما تزال تمتلك فراغات كثيرة ألقى فيها رغبته ألا يزوره اليوم مجددًا قبل أن ينتهي من كتابة كل نصوصه

المعلقة على حبال الانتظار ليتخلص من رفقاء صحوه ومنامه من شخوص ضبابية تؤرقه لتكتسب النور فوق سطوره.. هذا إن عاد للكتابة من جديد.. ألقى جسده المترنح على الفراش وهو يقاوم مزيدًا من الغياب تذكر رغبته الملحة ليستنشق هواءً برائحة مختلفة، فأضاف أمنية حملها على اليوم غير المكرر وتمنى أن يعاود زيارته، وهو يرتدي قميصًا مزركشًا باللون الأزرق وبنطالًا قصيرًا من القماش، وعلى رأسه بعض الشيب الظاهر من أسفل قبعة الخوص التي سيحجب بها بعضًا من أشعة شمس المحيط في نصف الكرة الجنوبي... أنفاسه تتنظم ببطء بعد أن استسلم عقله للغياب.. روحه تستكين بعض الشيء وهي تغادر جسده الضيق المجهد بفعل كل شيء.. يدرك أنه سيفيق في الصباح، وقد نسي تمامًا كل ما حدث في هذا اليوم.. سيفيق وقد برئ من ألم الصدمة، واستعد ليبدأ رحلته المحتومة.

❊ ❊ ❊

١٤

التوقيت حجة... نحن نصنع التوقيت كلما أردنا ونضعه مشجبًا لنعلق عليه بعضًا من شذرات الجنون والأماني، نعلق عليها أخطاءنا التي نفعلها بمحض إرادتنا الحرة فقط لأننا نرغب... لذا لا تسفسط بكونك أضعت وقتك الثمين في تلك الرحلة... أعلم أنك رفعت سقف طموحاتك بما خبرته، لكنك لو تذكرت التفاصيل جيدًا ستدرك أنه ليس هناك وقتًا لانتهاء الرحلة، لم يفت الأوان بعد على أن تسطر اسمك بحروف من ذهب في تاريخ البشرية أجمع، فقط عليك أن تصنع اختيارك بنفسك، فما يزال هناك متسع من الوقت للراحة قبل استكمال الرحلة مع شروق الشمس... امنح نفسك الفرصة للاسترخاء لكي تختار جيدًا.. أشعر بالتوتر يضرب كل خلاياك... فلتسلك هذا الطريق حتى آخره على اليسار ستجد عشًّا من الخوص... هناك يمكنك أن تحصل على بعض المتعة والاسترخاء.. أكثر لحظات العقل صفاءً هي التي تعقب استرخاء قذف منيك الساخن في تجويف رحم أنثى شبقة.. فقط لا تنسَ فالبقية ستأتي مع أول شعاع سيهرب من السماء هابطًا إلى الأرض.

❋ ❋ ❋

قبل الفجر خرج يوسف من باب المنزل الكبير... لم يعد يطيق البقاء وحده في الغرف الخاوية... مريم أو نوال أيًّا كان اسمها تنام أغلب الوقت بفعل أعراض الحمل التي تعانيها... مازن لم يخرج من غرفته منذ أن دخلها بعد مقتل العجوز في ساحة القرية... السكون يملأ كل شيء من حوله، وكأن سكون المنزل امتد ليملأ الكون كله.. كونه كله أصبح انعكاسًا لما يجري داخل المنزل... عندما حضر بمحض إرادته ليطرق باب مازن لم يكن يظن أن الأمور ستصل إلى هذا الحد... الفترة التي قضاها في مراقبة مازن أثناء عمله في جهاز الأمن استطاع أن يكتشف ما لم يفهمه قادته وقتها.. رغم أنه لم يكن وقتها يفهم ما وقع تحت يديه من معلومات وإشاعات متناثرة فإنه لم يكن ليغفل عن الإشارات الظاهرة... يوسف بالرغم من أنه يصدر للجميع صورة الشخص الغبي الضحل فإنه في واقع الأمر لم يكن كذلك... كان يملك على كتفه إرثًا لم يبح به لأحد من قبل... إرث توارثه في عائلته جيلا بعد جيل.. عائلة لم يكن يشغلها إلا البحث عن المخلص وأتباعه... خطوات أقدامه تعرف الطريق وحدها، رغم أنه لم يخطُ فوقها من قبل... انحدر لليسار تاركًا الطريق الترابي ليعبر بين الأشجار المتراصة بهدوء يليق بسكون الليل... أشجار الصفصاف التي تحتل جانبي الطريق تمنح الصورة بعدًا رومانسيًّا، لا يليق بما يختبئ خلفها... عدة أمتار قطعها قبل أن يظهر الكوخ الخشبي المختبئ... الباب المغلق أكد له أن الطريق

ليس خاليًا ليدخل بعد فجلس على صخرة بين شجرتين تخفيانه عن الأعين ويمنحه المكان إطلالة تكشف مدخل الكوخ... هواء الفجر المحمل بالندى ينعش صدره ويمنحه بعضًا من الراحة التي افتقدها الأيام الماضية... لماذا أصبح الوضع معقدًا بهذا الشكل؟!! انسحاب مازن لم يكن مقدرًا له أن يحدث.. ولا يدري كيف سيدفعه للخروج من عزلته الاختيارية ليكون كما يجب له أن يكون، فكر كثيرًا طوال الليالي الماضية ولم يفلح في الوصول لحل... هو يجيد فقط قراءة الإشارات، ولكنه لم يتعود أن يقدم الحلول... يجيد إطاعة الأوامر بحذافيرها ولا شيء آخر... الإشارات التي تتوالى عليه، منذ الهوجة الأخيرة قادته إلى مازن مجددًا، ولكنها لم تخبره ما عليه فعله... الانتظار ممل يهز ساقه في توتر... يحتاج لأن يسترخي جسده عله يتمكن من الوصول إلى بعض الصفاء، الذي يمنح عقله أفكارًا وحلولًا يحتاجها الآن بشدة... صوت الاهتزازات الذي يصله خافتًا توقف فتنبهت حواسه ودقق نظره نحو الباب، الذي فتحت فرجتيه ليخرج من بينهما رجل ضخم الجثة يداري ملامحه كلها خوفًا من أن يفتضح أمره... ابتسم يوسف لنفسه وهو يتعجب من أمر هؤلاء الذين يخجلون من أفعالهم في ستر الظلام... كم التناقض الذي يملأ البشر في تلك الدنيا يُدهشه... رغم كل ما فعله من شرور فإنه لم يخجل أبدًا مما فعل... دخل من الباب المفتوح فوجدها ملقاة عارية على حصيرة خشنة على الأرض... جسدها

الأسمر يقبع في الإضاءة الباهتة القادمة من الخارج منكمشًا على نفسه... الغرفة تفوح برائحة الدخان والمني واللعنات والسباب والانتشاء المزيف فتقلصت معدته... بعض الهمهمات خرجت من فمها المغلق مصحوبة بإشارة واهنة من إصبع يدها اليسرى للكوب النحاسي الموضوع في طرف الغرفة خلف الباب... أصابعها تشكلت بصعوبة لترسم شكلا رياضيًّا يساوي المبلغ الذي تريده مقابل باقي الليلة معها... صوت ارتطام العملات المعدنية التي ألقاها بنحاس الكوب جعلها تحرك جسدها بآلية شديدة لتستلقي على ظهرها، وهي تباعد بين ساقيها المنثنيتين... فرجها الملطخ بمزيج من الإفرازات الذكورية والنسائية واللعاب زاد من تقلص معدته، وأغلق الباب أمام أي مشاعر اشتهاء كانت يمكن أن تنتابه في حضرتها... أغلق الباب ببطء قبل أن يستلقي بجوارها على الأرض في صمت... لم يكن يحتاج إلى امرأة يعتليها... كان فقط يحتاج إلى دفء وجع مختلف يضم وجع وألم روحه التائهة... صوت رتابة أنفاسها المجهدة من تحمل ثقل آلام الآخرين وشهواتهم المكبوتة يمنحه هدوءًا يحتاجه... كان يعلم أنه الآن يطهّر بعضًا من روحه الممتلئة بالشرور... ضمها بين ذراعيه وأراح رأسه المجهدة على رأسها المجعد... كان فقط يحتاج إلى سكينة يفتقدها في فراغ بيت مازن ودوامات الإشارات والانتظار والأصوات التي تكلمه في صمت الليل... ربما سيغادر مع أول أشعة الشمس قبل حتى أن تستيقظ لتدرك

أنها مُنحت بعضًا من الاحترام والتقدير من رجل لم يعرفها من قبل ولن يدعها تعرفه... سيغادر دون أن تدرك أن جسدها عومل لليلة واحدة معاملة يستحقها، رغم كل ما تعلق به من إفرازات وسوائل لا تدرك من أصحابها... سيغادر حتى قبل أن يصل إلى حل للوضع المتأزم من فصل حياته الأخير... سيغادر وهو يحمل في داخله قدرًا من الهدوء سيمنحه الطاقة التي يحتاجها ليتمكن من الانتظار ومن التفكير في الحل... قدرٌ من الشيء اليسير الآن خيرًا من اللاشيء الذي يمتلكه.. هكذا فكر وأجفانه تحكم تطابقها ليعم رمادي الفجر كل شيء..

❋ ❋ ❋

على قمة جبل الحياة الرمادي جلس قليلا ليلتقط قدرًا من أنفاسه المبعثرة قبل أن يشرع في دق الصليب الذي حمله على كتفه في وسط الحجارة... ابتهل لمن في السماء راكعًا على ركبتيه المجروحتين، وهو يتشكك في سره إن كان هناك أحد هناك لأنه لم يجعل منه أضحوكة كسيزيف... قام بصعوبة وأخذ يتسلق قائم الصليب اللزج بفعل دماء جسده الملتصقة بأخشابه... لم يكن يهتم كثيرًا لما فقده من الدماء، فألم الجرح النافذ في داخل روحه كان أشد وطأة... على رأس القائم المقترب من السماء ربط حلقات الحديد، الذي كان يجر قدميه جرًّا تحت ثقلها... حمل ثقل جسده

الذي خف بفعل الألم على جانبي الصليب قبل أن يدخل رأسه في الدائرة الصغيرة وسط الحلقات المتصلة... أخذ ينظر للأمام نظرات بلا أي هدف يتأمل سُحب الحياة المارة أمام وجهه أنبأته بهطول وشيك لأمطار غزيرة فابتسم لها... كان يحب المطر وأحب أشياءً أخرى أيضًا، لكن البقاء ها هنا لم يعد يلائمه... حامت بعض الذكريات حول رأسه فطردها سريعًا كان يريد رحيلًا هادئًا بلا دموع حدث نفسه بأن الناس ربما ستذكره فيما بعد لو افتقدوا وجوده... لكنه كان يعلم أن لا أحد سيفتقده، لا يشعر أحد بالفقد في بئر الجحيم... سيتناقلون حكايا وسينسبونها لاسمه دون أن تخصه أو تقترب حتى من حقيقته... هو المعلق على صليب إيمانه بإرادة رغبته في حقيقته المطلقة... ترك قوائم الصليب ليتأرجح جسده قليلا قبل أن يسكن ويسكن ضجيج رأسه.. ويستسلم لرحلة أبدية من السكون

فقط كنت يتمنى أن ينهي قراءة الكتاب المدفون تحت بقايا الغرفة المخفية للدكان يخبرهم قبل رحيله ألا يمنحوه مدفنا من التراب... كان يريد أن يحرقوا ما تبقى من جسده وينثروه في هواء عاصفة مطيرة... الكثير من الأشياء كان يود أن يوصيهم بها لكنه لم يعد يطيق الانتظار بعد أن منحهم كل ما يقدر عليه ومازال هناك الكثير من الوقت لكي يلحق ركبهم بمثواه...

استفاق وهو يتفصد عرقًا من كل خلايا جسده... استغرق بعضًا من الوقت لكي يعمل ذهنه مجددًا، ويبدأ في تلقي الإشارات العصبية من مستقبلات الحس ليترجمها إلى تفاصيل مشوشة اختلط فيها بقايا الليالي السابقة مع مشاهد حلم ما يزال يستشعر آثاره على جسده.. كان هاجس واحد يسيطر على وعيه... كان فقط يريد أن يذهب لدكان العجوز... لم يكن يملك السبب، ولكنه كان مدفوعًا برغبة ملحة فشل في طردها طول فترة بقائه تحت الماء وهو يستحم... قبل أن يغادر تفقد جسد يوسف الملقى بلا اكتراث على المقعد الكبير في غرفة الجلوس، ومنح مريم قبلة حانية، وهو يخبرها أنه اشتاق إلى تناول الطعام في حضرة وجهها الصبوح...

❊ ❊ ❊

الطريق إلى الدكان تلك المرة كان مختلفًا... مازن كان يشعر أنه يستنشق هواءً مختلفًا، وتفاصيل المشهد كلها كان يراها لأول مرة... الأفكار والذكريات التي راودته مرارًا وتكرارًا كانت تصاحبه في طريقه تلك المرة أيضًا، لكنه لأول مرة كان يرى فيها جوانبًا جديدة... كان يسمع صوت عجوز الدكان يدندن لحنًا موسيقيّا بهيًا يتزامن مع إيقاع خطواته على الأرض الترابية... حتى حلم ليلة أمس المزعج كان يبتسم كلما لاحت له صورته يتأرجح بحركة بندولية على الصليب... كان مازن ابن اللحظة غير مازن الذي عاش السنوات الماضية... لم

تكن ملامح الصورة قد اتضحت بعد أمام ناظره، ولكنه كان يحس بروحه تضرب بأجنحتها داخل قفصه الصدرى... صوته الداخلي يتعالى وهو يخبره بأنه على بعد أمتار قليلة من نهاية دوامات حيرة ماضية... وصوته لم يخبره من قبل شيئًا لم يحدث... كلمات العجوز ترن في فضاء وعيه الصافي لتخبره بثقل الرسالة، التي سيحملها على باب طريقه الجديد لكن الحديث لا يعكر صفوه، هو كان يبحث طوال أعوامه الماضية عن سبب لوجوده.. الآن هو يتلقى الوحي الذي يجيب عن كل تلك التساؤلات، التي عصفت بحياته والآن فقط هو على استعداد لأن يحمل فوق كتفيه ثقل جبال الأرض مجتمعة.. روحه لن يربطها شيء بالأرض مجددًا ستؤدي المهمة أيًّا كانت على أكمل وجه، فهو خلق لأجلها.

بالقرب من خرائب الدكان لمح عددًا من الهياكل البشرية تجلس ببعض الأريحية... لم ينتابه الشك من وجود شركاء له في المهمة فحديث العجوز قبل وفاته في الدكان كان محددًا، لكن القلق تسرب إلى نفسه خوفًا من أن يكون الرجل المهم قد عيّن حراسه لتحيط ببقايا الدكان طمعًا في أن يظفر بأي شركاء محتملين للعجوز في القرية... نفس النظرية الأمنية الفاسدة يتوارثونها جيلا بعد جيل دون تمييز لتغييرات العصر ومعطياته الجديدة... رافق إحساس القلق بعض من ندم على عدم اصطحاب يوسف معه،

ولكن غالب ندمه وهو يخبر نفسه أن القادم أسوأ، ولن يفيد فيه كلب حراسة جيد مثل يوسف...

على مرمى البصر وبعد أن استحالت الهياكل البشرية إلى صور متكاملة من لحم ودم وألوان غابت كل مشاعره، وحل محلها إحساس عارم بالألفة والهدوء... البشاشة التي طلت من عيون الجالسين وهي تستقبل حضرته عكست السلام الذي شعر به يخرج من مسام جسده ليضيء الكون فوق الخراب، الذي اجتمعوا حوله ويلفه بهالة من الحماية القدسية لحضرة الأرواح الحرة التي سمت فوق كل شيء... حماية من جحيم سيستعر ليقضي على كل شيء إلا من حضر هذا اللقاء أو لحق القطار الأخير الذي سيرسيه مازن على القضبان.

هو لم يكن يتخيل عندما استجاب للرغبة التي أجبرته على الذهاب إلى الدكان هذا الصباح أن الأمر سيصبح اجتماعًا لأتباعه في رساله لم يتسلم بعد مفاتيحها، لكنه لم يهتم استسلم للتيار وألقى بجسده وسط أمواج الاحتفاء، التي ضربت أرض اللقاء حتى وجد نفسه وسط دائرة من المبتسمين تشير في نفس الوقت إلى باب الغرفة الداخلية المخفي بعناية قدرية تحت ركام الأخشاب، قبل أن يحيوه جميعًا بانحناءة خفيفة من رؤوس مرفوعة باستمرار نحو

سماء خفية تتجاوز السماء التي نعرفها... ويخبره أكبرهم سنًّا أنهم سيكونون هنا، وقتما يحتاجهم بعد أن ينتهي من خلوته في الغرفة الداخلية.

فى الغرفة الداخلية امتدت حالة الهدوء لتحل محل الهواء الثقيل وتعطر الجو ببعض من الصندل ممزوجًا بالياسمين.. كان يعرف طريق الكتاب جيدًا، رغم أنه لم يأت إلى هنا وحده من قبل... كان الكتاب بكل ما يحتويه من أشياء لا يعرفها يناديه... يشعر به يتواصل مع وجدانه الحي... اسمه يتردد في صمت الغرفة الصماء بصوت لم يسمعه من قبل... صوت لم يُسمع في الأرض من قبل...

جلس على الأرض واضعًا الكتاب أمامه مفتوحًا على الصفحة الأولى وبدأ يقرأ... كانت الكلمات تحمل ما لم يكن يتخيل أنه سيعلمه يومًا ما... في وقت آخر، ربما لم يكن سيصدق ما يقرأه أبدًا وسيتهم كاتبه بالخرف البين... الحقيقة دومًا تفوق ما نتخيله عنها... الحقيقة أننا نتوهم أن هناك حقيقة... قرأ عن البدايات، عن التكوين، عن الخطيئة الأولى... قرأ كل ما نزل من السماء على أنبياء يعرفهم سكان الأرض وآخرين لم يعرف عنهم أحد شيئًا أبدًا... قرأ عن أمم ملكت السماء والأرض... عرف عن حواء ورسالتها الخفية... قرأ عن النسبية ونظريات الكم والقنابل العنقودية... قرأ عن آكلي لحوم البشر ومصاصي الدماء والأموات أحياءً... قرأ عن الجنس

وفنونه وألوانه، عن العشق وآلامه وأوهامه... تعلم عن الطب وأنواع الأمراض ومختلف أساليب العلاج ما لن تدرسه كليات الطب أبدًا... قرأ عن الحروب والصراعات التي يدور في دوائرها الجنس البشري، منذ الوجود المادي على كوكب الأرض... قرأ عن نظم الحكم والديكتاتوريات العقيمة التي تسيطر على العالم... عرف عن وهم الديموقراطية والاشتراكية والرأسمالية... فهم كيف تتحكم القوة في كل شيء... قرأ عن باعة الأحلام وماضيهم وحكمة وجودهم، وما كتبه كل منهم عن الفترة التي عاشها... قرأ عما سيحدث في الغد القريب... قرأ مستقبل يوسف وحكاية نوال وكيف أصبحت مريم ومصير طفلهما الرضيع... عرف تفسير أحلامه والرؤى التي كانت تراوده... أيقن الغرض من وجوده في هذا التوقيت وعرف الموعد، الذي ستفتح فيه بوابة الجحيم... علم كل شيء عن مريديه الذين استقبلوه أمام خرائب الدكان وعن الأحلام وحفظ الطريق، الذي سيقود إليه أتباعه للهروب بعيدًا عن الجحيم المطلق الذي سيكون قريبًا... توقف الزمن في الدكان ليقرأ كل شيء في جلسة واحدة، خرج من الدكان وقد طال شعر رأسه ولحيته... تبدل ثوبه إلى رداء أبيض ناصع البياض لا يشوبه أي ما يسيئه... خرج مازن وقد تلقى رسالته كآخر بائع للأحلام على الأرض بصورتها الحالية... خرج ليدق في العالمين ناقوس الإنذار الأخير... خرج ليجد شمسًا مختلفة في وسط السماء... لن يعلم أحد أنه

أمضى في الغرفة الداخلية ما يساوي الشهر بحساب الزمن الأرضي العادى... لن يفهم أحد كيف يعمل الوقت والحركة والجاذبية .... سار في طريق عودته للمنزل الكبير، وهو يتأمل الناس في الحقول والسوق المزدحم وهو يقرأ ما يدور في نفوسهم... يترجم هالاتهم الداخلية... يعلم ماضيهم وخطاياهم وقدرتهم على تجاوز الأمور... يدرك بدقة من سيكون في زمرة التابعين ومن سيجبُن حتى يقوده الخوف إلى جحيم مطلق لن يُدرك أبدًا أنه سيعيش ميتًا فيه كالحي... سار في طرقات البلدة كلها، وهو يهمس في الهواء ترنيمته الأولى كمخلص أخير للأحلام وتابعيها.

❊ ❊ ❊

لقد دخلت الخطيئة إلى العالم من خلال إنسان واحد، وبالخطيئة دخل الموت. وهكذا ساد الموت على جميع الناس؛ لأن الجميع قد أخطأوا. كانت الخطيئة في العالم قبل إعلان الشريعة. لكن الخطيئة لا تُحسب إن لم تكن هناك شريعة. إلا أن الموت قد ساد على الناس منذ زمن آدم إلى زمن موسى. وقد ساد الموت حتى على الذين لم يخطئوا على طريقة آدم الذي خالف وصية الله. وآدم صورة للمسيح الآتي.[١٢]

❊ ❊ ❊

عشاء تلك الليلة كان مختلفًا بشكل غريب... يوسف لم يسكر لأول مرة منذ أن وصل إلى البلدة بالخمر... البهاء الذي طل من وجه مازن بعد أن عاد من الخارج أسكره، خاصة عندما أخبرهم أنه سيعيد افتتاح دكان العجوز مرة أخرى بعد أن يرممه... مريم كانت تحاول أن تتواصل معهم، بالرغم من الانقباضات التي انتابتها طوال الأمسية... مازن أخبرها أنه سيمضي الليل بجوارها ليطيب لها ألمها...

عند منتصف الليل ارتفعت صرخات مريم لتحتل فضاء المنزل الكبير كله... مازن كان بجوارها واضعًا يديّه الاثنتين على أسفل بطنها وهو يتمتم بكلمات مبهمة لم تفهمها... نادى مرارًا دون رد فخرج يبحث عنه في المنزل كله، فلم يكن هناك... يوسف كان قد غادر المنزل بعد العشاء مباشرة نحو كوخ الفتاة الغريبة... لم يكن هناك أي إشارة لوجود أحد هناك... الأضواء كانت مغلقة والباب موصد... جلس على نفس الصخرة التي جلس عليها الليلة الفائتة ينتظر الإشارة... الأفكار تتقافز على ذهنه، لكنه لم يكن يريد أن يفكر... كان فقط يريد أن يشعر ببعض الصفاء والسلام بجوارها... لم يصبر حتى يُفتح الباب أو يتأكد من خلو الكوخ... دق على الباب بكف مرتعش بفعل الرغبة المحمومة في الهروب من ظلامه الداخلي... لحظات قبل أن يأتيه صوت خطوات قدمين خفيفتين يلامسان الأرض بالكاد كأول إجابة تصله من خلف الباب المغلق...

صوت دقيق لأنثى أعقب صوت الخطوات يسأل عن الطارق أجفله قليلا، قبل أن يرد بأنه ضيف... كانت تلك المرة الأولى التي يسمع فيها صوتها... صرير الباب الخشبي أعاده من تأثير صوتها على قلبه إلى الظلام وسط الأشجار... ضوء خافت ينعكس من الداخل على جسدها فيكسبه ظلا مهيبًا... عيناها تشتعلان بقوة لم يلحظها في الليلة الفائتة... سألته عما يريد وهي تسد بجسدها الصغير الطريق أمام دخوله الكوخ... ابتسم وأخبرها أنه لا يريد سوى البقاء قليلا في حضرتها، وذكرها بليلته الماضية بجوارها... وقفت تتأمله قليلا ببعض الريبة قبل أن يرتسم شبح ابتسامة على شفتيها، وهي تحرك جسدها لتُفسح له مجالًا ليعبر داخلا... جلس على الأرض وهو يتأملها بمزيج من الدهشة المخلوطة بمشاعر غير مفهومة من طرفه، لكنه لم يكن يرغب في أي تفاسير... هو فقط لم يكن يحتاج لأكثر من الراحة التي كان يجدها في وجوده بجوارها... جلست بجواره وبدأت تتكلم... كلمته عن كل شيء... ماضيها وذكرياتها الموجعة... حاضرها وما فيه من آلام تتحملها بصبر المدرك لماهية أفعاله... مستقبلها الذي لا يتجاوز مجرد أحلام تراودها في الليالي القليلة، التي تمضيها برفقة نفسها بعيدًا عن زيف الشهوة الكاذبة وشبق الذكور الباحثين عن متعة مسروقة على هامش الحياة التي يظنون أنهم يمسكون خيوط تفاصيلها بين أصابعهم... أخبرته أنها تعرف أنهم كاذبون أحيانا وواهمون أحيانا أكثر لكنها لا تهتم... تشعر

عليهم بشفقة تفتقد شعورها بمثيلها تجاة نفسها... هو كان يسمع فقط لم يعلق ولم ترغب في أن تسمع منه أي تعليق... تجردت من ملابسها وألقت بجسدها على الفراش الوحيد بجواره وهى تنفث دخان سيجارة تقاسمتها معه لتحصل على متعة مشاركة شيء بإرادتها مع أحدهم... يوسف كان معلقًا بثقل روحه كلها في خيوط الصفاء المنبعث من روحها، رغم كل ما يغلفها من دنس... أراح جسده المشدود بفعل كل ما يضربه من أفكار ورغبات ومشاعر بجوارها، واستسلم بعيدًا عن شبح مازن الذي يطارده... لم يكن يريد أن يحلل حديثه الأخير ويربطه بماهيته التي يبحث عنها... لم يكن يريد أن يفكر فيما عليه أن يفعله ليجعله يعبر الطريق بين ما هو عليه وما يجب أن يكونه... لم يكن في هذه اللحظة يريد أكثر مما هو فيه... ربما فاته أن يكون حاضرًا مع مازن ومريم، بينما صراخ ألمها الشديد يتصاعد رغم تمتمات مازن ومحاولاته في التخفيف عنها... لو كان هناك ربما كان استطاع أن يقرأ حالة الاستسلام المستكين التي تملكته رغم جلل الموقف... مازن كان يدرك أنه لا محالة لما سيحدث... بل كان يدرك أنه يجب أن يحدث... لا يمكن أن يكون هناك نسل منه في المطلق ومن اتحاده بمريم تحديدًا... ناموس الكون الذي وضع في البدايات الأولى لا يستقيم معه حدوث ذلك أبدًا... لو كان يوسف هناك لحضر تقلصات وجهها بينما الدماء تنساب من فرجها حمراء قانية... ووجه مازن يتلون بفعل

وجع روحه على آلامها غير المحتملة... لو كان هناك لشاهد جنين غير مكتمل النمو يخرج ملفوفًا في كيسه المدرج بالدماء، وتخرج معه روح مريم الجديدة... كان سيفهم حتمًا ما عليه أن يفعل ليحصل على ما يرغب فيه ويشغل مساحات تفكيره منذ ليال طويلة... لكنه كان ينعم ببعض السلام، الذي ظن أن روحه القلقة تحتاج إليه الآن وعليه أن يمضي مزيدًا من الليالي في حيرته حتى يحدث ما عرفه مازن وحده مكتوبًا في صفحات كتاب الحقيقة الوحيد، الذي لن يعرف بشرًا من كان أبدًا أيًّا مما كتب فيه، وحتى بداية الجحيم المنتظر.

❊ ❊ ❊

١٥

الألم هو الغريزة الوحيدة التي يشترك فيها جميع المخلوقات على وجه الأرض... فقط كيفية التعاطي مع هذا الألم هو ما يفرق البشر وترجع استجابات البشر المختلفة للألم إلى الكثير من الأمور... باعة الأحلام لا يشعرون بالألم.. وأحيانًا لا يجيدون التعاطي معه بعيدًا عن طقوس تبادل الأحلام.. لذا بعد أن فقدت مريم الجنين الذي عاشت من أجله لم يستطع مازن أن يبادلها شعورها بالألم رغم كل محاولاته في إظهار التأثر واستماتته في التخفيف عنها بكل الطرق... فقط هو كان لا يفعل أي شيء بروح... فلم تقبل منه روح مريم أي شيء، وانزوت في غرفتها تذبل وحيدة وهي تتجرع دموع حزنها المرة ليلا ونهارًا في صمت... بينما خرج مازن في اليوم الثالث ليباشر مهمته الجديدة مرتديًا جلبابه الأبيض الناصع... كان يمضي نهاره في السوق بين الباعة والمشترين يحدثهم وفي الليل يسهر عند الدكان وسط خاصته وحاشيته من مريدى الأحلام حتى منتصف الليل...

يوسف كان لا يزال يقبع وسط دوائره في منطقة الحيرة الرمادية... يشرب كل ليلة حتى الثمالة، ولكن عقله لم يكن يثمل أبدًا مهما شرب... أخبار مازن تصله كلما خرج من المنزل الكبير فتزيد ضبابية

حيرته... كلما فكر في الأمر بتمعن كان يقف أمام صورة يسوع يبشر تلاميذه، ولم يكن يفهم على الإطلاق سر تمسك مازن بتلك الصورة... هو يعلم أن العلامات تشير لكون مازن هو المخلص... لكن يسوع لم يكن بالنسبة له ابن الإله ولا النبي المعجزة التي يؤمن به أرباب الديانات المختلفة في بلدتهم... يوسف كان يرى المسيح بعين أخرى... يسوع كان الثائر اليهودي الذي لم تكتمل ثورته لأنه فقط كان طيبًا... لذا كان يرى أن ارتداء مازن لعباءة يسوع الطيب لن يؤدي إلى أي خلاص... فالطيبة لا تصلح أبدًا في زمن كثُر فيه الذئاب... لكنه لم يصل بعد إلى طريق يسلكه ليخلع عنه تلك العباءة ويجعله يقوم بالدور الذي يجب أن يكونه... الإشارات التي تتوالى على يوسف دون انقطاع، منذ ليلة موت جنين مريم تضرب أعصابه بمطرقه حديدية وهي تلح على اقتراب الوقت المعلوم ولم يعد يطيق الأمر... انقطع عن زيارة فتاة الكوخ أسابيع، لكنه قرر أن يعاودها ليلة الغد... سهرة الليلة التي اضطر أن يوافق عليها بعد إلحاح شديد من مازن ستجعله يؤجل الأمر، رغم يقينه من أن أعصابه ستزداد توترًا من رفقة مازن، ولن تفلح كمية الخمر الذي بدأ ضخها في دورته الدموية منذ العصر في تخفيف الأمر.

❊ ❊ ❊

كان أول ذكر ليهوذا الإسخريوطي في الإنجيل هو أثناء اختيار يسوع لرسله الاثني عشر، وكان الإنجيل يصف يهوذا بالمسلم من حيث أنه سلم يهوذا لليهود (ويهوذا الإسخريوطي الذي صار مُسلمًا أيضًا)، وكان يسوع يعرف دائمًا بأن يهوذا سيخونه وقال عن يهوذا سمعان الإسخريوطي: (لأن هذا كان مزمعًا أن يسلمه)، وهو واحد من الاثني عشر.

أجابهم يسوع:

(أليس أنني اخترتكم الاثني عشر وواحد منكم شيطان).

وكان المسيح قد أوكل ليهوذا الإسخريوطي مهمة حفظ ماله ومال التلاميذ، وكان صندوق المال عنده وكان يسرق منه.

يهوذا الإسخريوطي أو يهوذا سمعان الإسخريوطي معنى اسمه بالعبرية (الحمد) ومن لقبه الإسخريوطى نستدل بأنه كان من مدينة تسمى "قريوط" أو "قريوت" تقع في جنوب مملكة يهوذا، التي ذكرت في العهد القديم وقد تكون هي ذاتها خربة القريتين الكائنتين على بعد أربعة أميال ونصف جنوب قرية معين أو قد يكون من مدينة موآب الحصينة المذكورة أيضًا في العهد القديم.

وكان كتبة الأناجيل يركزون على كتابة لقبه لتمييزه عن الرسول يهوذا تداوس.

وبحسب الأناجيل القانونية فإن يهوذا الإسخريوطي هو التلميذ الذي خان يسوع وسلمه لليهود مقابل ثلاثين قطعة فضة، وبعد ذلك ندم على فعلته وذهب فقتل نفسه وبعد قيامة يسوع من الموت اختار الرسول متياس بديلا عن يهوذا ليكون من جُملة الاثني عشر.

اتفق يهوذا مع رؤساء كهنة اليهود أن يسلم لهم يسوع في مكان خلاء؛ لأن اليهود كانوا يخشون القبض على يسوع أمام الجموع لكي لا يثورون ضدهم، وأثناء العشاء الأخير أعلن يسوع أن واحدًا منهم سيسلمه لحكم الموت لتكتمل جميع التوبات، وفيما هم يأكلون قال: (الحق أقول لكم إن واحدًا منكم يسلمني) فحزنوا جدًّا، وبدأ كل واحد منهم يقول له: (هل أنا هو يارب) فأجاب وقال: (الذي يغمس يده معي في الصفحة هو يسلمني أن ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه، لكن ويل لذلك الرجل الذي يسلم ابن الإنسان كان خير لذلك الرجل لو لم يولد) فسأل يهوذا مُسلمه هل أنا هو يا سيدي؟ قال له: (أنت قلت) ثم دخل الشيطان قلب يهوذا.

كان يهوذا يعرف بطبيعة الحال الأماكن التي اعتاد يسوع أن يختلي فيها بتلاميذه، فدل اليهود على مكانهم في بستان جثيماني وكان قد اتفق معهم مسبقًا بأن الذي سيقبله هو يسوع الناصري، وعندما وصل قال له يسوع جملته المشهورة: (يا يهوذا أبقبلة تسلم ابن الإنسان)، وبعد أن ألقى اليهود أيديهم على يسوع ندم يهوذا أنه سلمه وأعاد الفضة للكهنة وذهب وشنق نفسه فابتاع رؤساء الكهنة بتلك الفضة حقل الفخارى الذي سمي حقل الدم.

يؤمن الغنوصيون بأن يهوذا بريء من تهمة الخيانة، وبأنه إنما قام بفعلته تلك لخدمة سيده المسيح، وتذهب جماعة القاينيين الغنوصية إلى أبعد من ذلك فتبجل شخص يهوذا، وتعتبر أن قيامه بتسليم يسوع للموت كان لغاية نبيلة وهي تخليص العالم من الخطيئة ؛ لذلك يجب احترام وتقديس يهوذا بل وشكره على مساعدته المسيح، فيهوذا عَلم بأن يسوع كان خائفًا مما هو مقدم عليه فخشي أن يتراجع نهائيًا عن فداء البشر؛ لذلك خانه أو سلمه لرؤساء الكهنة لكي لا تعاق عملية الخلاص.[١٣]

❋ ❋ ❋

كان مازن يجلس على الكرسي الخشبي أمام باب الدكان وفي مواجهته التفت مجموعة من الناس مشكلين دائرة غير مكتملة على الأرض، ويوسف كان يجلس وحده خلف الدائرة يشرب في خلسة ماءه المقدس... صوت مازن وحده يرن في صمت الليل ويرن في رأس يوسف... كان يحدثهم عن التضحيات التي سيبذلونها من أجل الخلاص... تحرير أرواحهم بدأ بما فعلوه في غرفة الدكان الداخلية لكنه كان فقط البداية... الطريق أمامهم ما يزال مفتوحًا حتى الوصول إلى خط النهاية... الأحلام هي فقط أول الخيط الذي سيتبعونه... الأحلام يا سادة هي البرزخ الذي سيعبرون منه بأمان... ستجتمع الأحلام وتصنع بعدًا جديدًا سنعيش فيه بأمان بعيدًا عن لهب الجحيم المستعر... كلما زادت الأحلام كلما اتسعت مساحة البعد الذي سنكون فيه... ستكون جنة فيها كل ما تمنيناه ولم نعشه على الأرض... ستجتمع كل نظريات الفلسفة والعلم والفيزياء؛ لتشكل لنا ما لم يخطر على قلب بشر من قبل... وجهه يزداد بهاءً مع ارتفاع وتيرة حديثه عن الأحلام... طلب من مريديه أن ينشروا كلماته مهما كلفهم الأمر... ستصير دعوتهم علنية منذ اليوم... أخبرهم أنهم سيلاقون الكثير من الاستخفاف والأذى لكن عليهم الصبر والاحتمال... فالآخرون لا يعلمون وعليهم الخضوع للاختبار الأخير حتى يحين الوقت المنتظر وهو قريب... قطع حديثه صوت ضحكات يوسف المتعالية بفعل الحديث الذي لم يرق له...

استهجان الحشد ينبئ بكارثة، لولا أن مازن أشار لهم أن يتركوه وهو يسأل يوسف عما يُضحكه... يوسف لم يُجب ولم يتوقف عن الضحك بهستيرية... كان حديث مازن آخر أمر يتوقع أن يسمعه في تلك الأمسية، الأمر أكثر تعقيدًا مما كان يفكر أو يظن... مازن لم يلبس فقط عباءة يسوع كما يظن، لكن القصة كلها يُعاد إخراجها مرة أخرى... الإشارات لم تخبره الأمر بهذا الشكل، كما أن ما توارثته عائلته جيلًا بعد جيل لم يكن يوحى بأن القصة ستكرر بتلك الطريقة الدرامية أبدًا... إذا كان مازن هو مخلص آخر الزمان أو بائع الأحلام كما أطلقوا علية في تلك الأمسية، ويلعب دور يسوع فلا بد أن يكون هناك يهوذا من جديد... لا بد أن تتم التضحية ليتم الخلاص... الأزمة التي كان يفكر فيها بعد أن غادر الجمع، الذي صرفه مازن بعد نوبة الهيستريا التي قطع بها يوسف حديثهم هي في ماهية الجحيم القادم... عقله الذي لم يتعود على الأسئلة والتحليل لم يكن يستوعب أن يكون الأمر هكذا... لوهلة فكر في أن كل شيء محض عبث مطلق، وأنه مريض نفسي يحتاج إلى مساعدة ضرورية وسريعة، وأن ما يظن أنه يحمله وما يصله من إشارات هي أعراض مرض الضلالات التي يعاني منها... كانت أقدامه تخبط على الأرض فقط ليمنع نفسه من السقوط قبل أن يصل إلى الكوخ، الذي قرر أنه سينقل إقامته فيه من الليلة.. كيف

سيعيش مع مازن تحت سقف واحد بعد تلك الأمسية... يحتاج إلى أن يعرف أولا تشخيص وضعه قبل أي شيء آخر...

ألقى جسده على الفراش الخشن بجوار فتاة الكوخ التي ما عادت تستقبل زبائنها أبدًا... رأسه يكاد ينفجر من ضجيج الأفكار المشوشة بتأثير التوتر والخمر... الجحيم قادم فأطلقت من حنجرتها صوت استهجان قبل أن تنقلب على ظهرها وتدخل في نوبة من هيستريا الضحك... هم يعيشون في أحط درجات الجحيم هكذا أجابته بعد أن توقفت عن الضحك بصعوبة... سألها إن كانت تظن أنه مجنون أو يعاني من خطب نفسي ما فربتت على رأسه وهي تضمه إلى صدرها وتخبره أنها تعرف الرجال جيدًا... ربما كان هو صنف مختلف عما اعتادت أن تستقبله في منزلها، لكنه ليس بمجنون قطعًا وإلا فليكن الجنون نعمة لا بد أن تصيب الجميع... أغمض عينيه وهو يطرد أفكاره كلها، كان بحاجة للراحة قبل أن يبدأ المرحلة الأخيرة من مهمته... سيدفع مازن دفعًا ليكون المخلص الحقيقي من الجحيم، الذي يعيشون فيه على الأرض... ولو لم يكن هناك بد من أن يُعاد تمثيل رواية يسوع فلتُعاد بطريقته هو... فليكن مازن هو يسوع لكن بدون أن تُفسد الطيبة ثورته... وليكن هو يهوذا هذا الزمان... حتى لو سلم مازن للموت من أجل أن يتم الطقس الأخير لخلاص الجميع... فدماؤهم وقتها ستكون بلا ثمن .

❋ ❋ ❋

سبحان من أظهر ناسوتهُ

سرّ سنا لاهوتِه الثاقب

ثم بدا في خلقه ظاهرًا

في صورة الآكل والشارب

حتّى لقد عَايَنَهُ خَلْقهُ

كلحْظِة الحاجب بالحاجب

كتبتُ ولم أكتُبْ إليك وإنّما

كتبتُ على روحي بغير كتابِ

وذلك أنّ الروح لا فرق بينها

وبين مُحِبيّها بِفَصْلِ خطابِ

أُريدُك لا أريدك للثواب

ولكنّي أريدك للعقاب

فكلّ مآربي قد نِلْتُ منها

سوى ملذوذِ وجدي بالعَذَاب

فكلّ مآربي قد نِلْتُ منها

سوى ملذوذِ وجدي بالعَذَاب

كَفَى حَزَناً أنّي أُناديك دائماً

وأَطْلُبُ منك الفضل من غير رغبةٍ

فلم أرقبلي زاهدًا فيك راغب

كَفَى حَزَنًا أنّي أُناديك دائما

كأنّي بعيدٌ أو كأنّك غائب

وطْلُبُ منك الفضل من غير رغبةٍ

فلم أرقبلي زاهدًا فيك راغب(١٤)

❊ ❊ ❊

الظلال الرمادية التي تحتل مخيلة مازن في الغرفة الداخلية للدكان اختلطت بالظلال الفيروزية القادمة من غرفة المذبح بداخل المعبد البعيد في قلب الجبل... أغمض عينيه وترك روحه تنساب لتتحد مع مزيج الظلال.. انتظر قدومها منذ ليلة وفاة الجنين... كان يدرك مأساة مريم ولكنه لم يملك ما يدفعها عنها فكل شيء جاء في الكتاب السري... كان يعلم أنها ستبكي بحرقه بين يدي العجوز القادمة... ستطلب فرصة أخرى في جنين آخر تحمله بين أحشائها.. ستطيب العجوز خاطرها وهي تخبرها أن الأوان فات... وأنها لا تستطيع أن تحتفظ بأي زرع في أرضها... ستخبرها أن دورها كحواء انتهى وأن المهمة التي حملت أثقالها انتهت... ليس عليها أن تبتأس أو تحزن، فهي أدت دورها المطلوب على أكمل وجه حتى لو ظنت عكس ذلك... ستخبرها العجوز أنهن جميعًا أدوات في يد السماء ينفذون مشيئتها حتى ولو لم يفهمن الحكمة وحتى لو لم يكن هناك أي حكمة... لم تكن العجوز تعلم الحكمة هي فقط تؤدي رسالتها كمريم... دماء رحمها التي انسابت منذ أسبوع كانت إشارة البدء بالنهاية، وعليها أن تكمل الدور كما كتب... روح مازن الهائمة في مزيج الظلال كانت تضطرب مع كل تنهيدة ألم تطلقها مريم... كان يشعر بآلام لم يسبق أن شعر بها بائع أحلام من قبل بينما مزيج الظلال ينقسم لتغادر الظلال الفيروزية تاركة روح مازن وحدها تغرق في الرمادى... يهبط تحت ثقل المعرفة التي تقبل حملها

بطبيعة كينونة خلقه.. مشكلته كانت في تخوفه من قدرته على القيام بما حملت نفسه... عجوز الدكان أخبره أنها أمور مدفونة في التركيب الجيني له منذ أن خُلق... ألمه على مريم كان من بقايا الطبيعة البشرية التي عاش في ردائها أربعين عامًا من وجوده المادى على الأرض... قبل الفجر بقليل انزوت الظلال الفيروزية تمامًا من البعد الذي تطفو فيه روح مازن واحتل مكانها ظلال حمراء زادت من آلامه وآلام مريم، التي لم تتوقف عن النحيب... كان يرى وجهها في الظلام يزداد شحوبًا على شحوبه... كان يتمنى لو يضمها بين ذراعيه ويهرب بها بعيدًا عما هم فيه أو على الأقل يخبرها بما يعلم ليجعلها أكثر تقبلاً لطبيعة ما يحدث... لكن كل ذلك كان محض أحلام تنتابه وحده، ولن يتجاوز أي منها الخط الفاصل بين دنيا الأحلام والواقع.. الدماء تتفجر من شرايين يدها لتلطخ الغرفة كلها بلون قرمزي طاهر... صوت آلامها يتعالى ثم يخفت مع هدوء حركة دخول الهواء في صدرها المتوقف عن العمل... روح مازن تتلون ببقع من اللون القرمزي لن تغادره أبدًا... فدماء مريم هي أول طريق التطهر من الجحيم... هي اللوح الأول الذي سيصنع الباب، الذي سيعبرون منه بعيدًا عن الجحيم... مريم كانت الأضحية الأولى على مذبح الأحلام.. فحواء هي الأولى... وسيتبعها الجميع.

* * *

خرجت من العالم بفضل عالم آخر؛

وانمحى تصور

بفضل تصور آخر

فأصبحت أتجه نحو الراحة

أنا ذاهبة إلى الصمت

إلى حيث يرتاح الزمان في قلب أزلية الزمان. (١٥)

❋ ❋ ❋

غادر يوسف الكوخ بعد أن جاءه مرسال مازن... كان قد أمضى أسبوعًا في حضرة فتاته، لم يغادرها ولم تتركه... اعترف لها بكل ما يملك من أسرار وأفكار وهلاوس... لولا أن المرسال أخبره أن الخطب جلل ما كان قد خرج... البوح كان الطريق الذي لم يدرك أنه غايته إلا عندما سار فيه... أن تخفف ثقل ما تحمله بمشاركته مع شخص تثق فيه يمنح روحك الكثير من الخفة التي تحتاجها... هذا ما كان ينقص يوسف لكى ترتاح عضلاته ويختفي التوتر الذي يضرب أعصابه... ربما لم يكن البوح هو السبب فالأصوات لم تعد

تراوده، منذ أن احتمى بذراعيها لكنه كان يريد أن يجعلها هي السبب في راحته... استمعت له بكل إنصات حتى انتهى... أطعمت روحه من حديث خارج من خبرة سنوات امتهنت فيها فصقلت روحها... منحته دون أن تقصد عينيها ليرى بهما الصورة من جانب آخر... ربما كان يوسف يرى أن ما يعيشون فيه جحيم مطلق لا يمكن أن يكون هناك ما هو أكثر منه... لكنها كانت ترى الأمور لا بد أن تدور في مدارها الطبيعي لتكتمل... الخلاص سيحدث بأي شكل... ربما كان مازن فقط علامة لا أكثر... الجحيم الذي يحيون فيه لن يكون الأعظم، ولن يكون الأخير فما زالت المرارة تتركز في ما يقبع في قعر الكأس من قطرات... ودعته بقبلة على جبينه، وهي تطلب منه ألا يتأخر... أخفت عنه القلق الذي يضرب أوصالها بمهارة طالما استخدمتها في حياتها السابقة كما أخفت عنه أنها زارت دكان مازن، وأنه كان الحلم الذي رأته في الغرفة الداخلية... أغلقت الباب وهي تمسح دموعًا هاربة من عيون تمتلئ بحزن النهاية، التي شاهدت تفاصيلها كاملة في الدكان.

❋ ❋ ❋

الفراغ يملأ أنفاسه، ورغم ذلك يشعر بضيق شديد لم ينتَبْه منذ سنوات... تفاصيل ما يحيط به من أشياء تتداخل حتى أنه لا يقدر على تمييزها، بل يفقد أيضًا القدرة على تمييز أبعاده الخاصة ومدى

علاقتها بكل ما يحيطه من أشياء يجهلها... يحاول عقله أن يفهم ما يحدث.. لم يحدث له أمر هكذا من قبل حتى في أسوأ أيام حياته اضطرابًا عندما كان في قبو السجن يجهل مصيره... ظن بعد أن عرف الحقيقة الكامنة في الكتاب السري أن الأمور قد استقامت، خاصة أن عجوز الدكان أخبره أنه ليس كسائر البشر، بل إنه ليس كالبشر على الإطلاق رغم أنه يشبههم وفهم ماهية كونه، وطبيعة رسالته كبائع للأحلام وحارس مؤتمن عليها.. أين هو الآن؟ أين هي الأحلام التي ستنقذ مريديها من الجحيم... أي جحيم أكثر من العدم الذي هو فيه الآن، هل كان الأمر محض خيال؟! أم هلاوس سكر؟! هل مات وتقبع روحه الآن في برزخ العدم.. يصارع الخوف الذي يستشعره يدب في أنامله التي لا يشعر بوجودها، يمنعه الثقل المتزايد في صدره رغم الفراغ.. صوته يأتيه من بعيد مصحوبًا بصوت عجوز الدكان مع عدة أصوات أخرى، لا يميز وعيه أصحابها... دوائر من الجاذبية تشد خلاياه الغائبة في أبعاد أخرى لا يدركها ومعها تتوالى كلمات الأصوات التي لا يميز أصحابها... كلمات عجوز الدكان التي غاب أكثرها في ضجيج صداع ضرب عقله بعنف غير مسبوق تضيع، ولا يبقى منها غير "ليلتين" تصله وهو يفيق على يد يوسف تحركه من غفوته التي لا يتذكر أنه راح فيها.

❊ ❊ ❊

١٦

وقال له يهوذا يا معلم أي ثمار يخرجها ذلك الجيل؟

قال يسوع أرواح جيل البشر سوف تموت، وعندما يتم هؤلاء الناس زمن الملكوت ويغادرهم الروح ستفنى أجسادهم ولكن ستظل حية، وسيتم رفعهم إلى السماء. قال يهوذا: وماذا ستفعل باقي أجيال البشر.

قال يسوع: من المستحيل أن تغرس البذور في الصخر ثم تجني ثمارًا، هذا هو أيضًا سبيل الجيل المدنس، والحكمة الفاسدة، أن اليد التي خلقت الناس ليفنوا، تصعد أرواحهم إلى الأعالي الخالدة، الحق أقول لكم إن قوة الملائكة ستقدر على أن ترى هؤلاء الذين من أجلهم (....) الأجيال المقدسة وبعد أن قال يسوع ذلك رحل.

قال يسوع: "تعال حتى أعلمك أسرارًا لم يرها أحد قط؛ لأنه يوجد عالم عظيم ولا حد له، الذي لم ير وجوده جيل من الملائكة قط الذي فيه يوجد روح عظيم غير مرئي".

الذي لم تره عين ملاك قط.

ولم يدركه فكر قلب قط.

ولم يدعَ بأي اسم قط.

"وظهرت سحابة منيرة هناك، فقال الروح: "ليأت ملاك إلى الوجود في حضوري".

"وانبثق من السحابة ملاك عظيم، الروح الإلهي المنير المولود الذاتي. وبسببه، جاء إلى الوجود أربعة ملائكة أخرى من سحابة أخرى. وصاروا حاضرين للمولود الذاتي الملائكي. فقال المولود الذاتي: ليأت إلى الوجود، وجاء إلى الوجود. وخلق هو المنير الأول ليحكم عليه". وقال ليأت ملائكة إلى الوجود لتخدمه، وجاء إلى الوجود ربوات لا تعد. وقال هو ليأت أيون منير إلى الوجود، وجاء (الأيون المنير) إلى الوجود. وخلق المنير الثاني ليحكم عليه، ليقدم خدمة مع ربوات الملائكة غير المحصاة. وهكذا خلق بقية الأيونات المنيرة. وجعلهم يحكمون عليهم. وخلق لهم ربوات من الملائكة بلا عدد لتساعدهم.(١٦)

❊ ❊ ❊

علينا أن نغامر بكل شيء فقط من أجل ذاك الشيء، الذي نؤمن يقينًا به.

❊ ❊ ❊

الشمس هذا النهار لم تكن كما اعتاد عليها من قبل... لم يهتم كثيرًا بكون اختلافها نابعًا عن تغيير في طبيعتها أو تغيير في مدى إحساسه بالأمور كلمات عجوز الدكان تتردد في آذانه منذ أن أنهى لقاءه القصير مع يوسف ليلة أمس... يشعر كثيرًا بالتعب من كثرة الترحال.. الوحدة تؤرقه بعنف... نهايات كُثر يتذكرها الآن وحده وتؤلم روحه... لم يعد يرغب في شيء إلا إنهاء مهمته... الآن يفهم كيف كان العجوز يخبره بأنه سيزهد حتى فروج النساء العذارى منهن والثيب... ستتوقف روحه عن السكر مهما تجرعت من خمور... يفكر كثيرًا في إنهاء حياته، ولكنه لن يفعلها.. الرسالة ليست سهلة كما أخبره ولكنه قدر المرسلين... هل تظن أن الإله أيضًا لم يشعر يومًا بالوحدة؟! سؤال أسقطه من حديث العجوز، بعد أن وصل إلى ساحة سوق البلدة المزدحم... رحب به الكثيرون ودعاه بعضهم للجلوس برفقتهم، فقد كانت شهرته قد ضربت أنحاء البلدة كلها بسرعة إحتراق فتيل قماشى تشبعت أنسجته بسائل سريع الاشتعال لكنه رفض بلباقة... في وسط الساحة ضرب الجرس المعلق فاجتمع حوله الناس، تأملهم في صمت حتى انتقل صمته ليحتل الساحة كلها قبل أن يخطب فيهم خطبته الأخيرة...

معلق أنا على مشانق الصباح... لكن جبهتى بالموت لا تحنى أبدًا، فقيصر لم يأمر الجلاد بصنع المشنقة ولن يفعل، ربطت الحبل بنفسي منذ أن عرفت، أحكمت العقد ليلة بعد ليلة وأنا أعلق

روحي في دائرة نار غواية الحقيقة... ولكن كيف ستدركون وأنتم لا تعلمون الحقيقة... وضعت رقبتي في دائرة الموت باختياري بعد أن أحكمت دق المسامير في صليبي، أراكم من خلف جفوني ترقصون على أنغام تأوهات متعة أجسادكم الوهمية وجراحي تنزف دمها في صمت، أُأرجح جسدي بإرادتي بعد أن قطعت أوردتي لتنساب روحي من فتحاتها على أرض مذبح لن يتعبد فيه أحد بعدى... أصوات مضاجعة القوس لأوتار الكمان يغطي على كل أصوات الكون من حولي، ومن بعيد تهب رياح شمالية باردة تحمل معها أحلامي المنسحقة بين عقارب وقت، لم يكن لي ولن يكون أيضًا لكم... فقد انتهت مهمة الوقت.. وإلى الأبد.

أنهى خطبته وقد احتل السماء ظلام رهيب ملأ عيون الحاضرين برعب لم يعرفوه من قبل... لم يفهم أيًا منهم ما قاله مازن، لكنهم شعروا بزلزال يضرب أرواحهم المجبرة على قبول وهم الاستقرار الزائف داخل حيز أجسادهم المنسحقة في كل مكان يخطون فيه... شعروا لأول مرة أنهم يعيشون أمواتًا منذ زمن بعيد... كل واحد منهم دار في دوائر مغلقة من ذكريات ظن أنها ضاعت في بحر النسيان... لكن شيئا لا يروح أبدًا... هو لم يهتم وتركهم غير مأسوف على مصير اختاروه بصمت وخنوع وخوف حتى من المطالبة بأبسط حقوق الحياة... سار في طريقه نحو الدكان، وهو يرى بعيونه المغمضة الدماء تتناثر في كل مكان من حوله دون أن

ينزف أحد ممن مر بهم... يرى الأرض، وقد خرج ما في باطنها يطالب بحقوق أهدرها حفنة من الأحياء أمواتًا على سطحها لعقود... يرى السماء وقد فُتحت أبوابها وانسابت منها أنهار من دعوات وصرخات، لم يُعن أحد أن يستمع لها من قبل... كان يرى كل شيء، رغم أن لا شيء يحدث... هو لم يتحرك خارج السوق، رغم أنه كان يظن أنه يسير... دوائر المستمعين لخطابه أطبقت عليه من كل جانب تقتاده لقصر العمدة وفشلت جهود مريدي الأحلام في أن تنقذه؛ لأنه لم يكن مكتوب له أن يُنقذ...

❊ ❊ ❊

كان قد انتهى من دفن جسد مريم الخالي من الدماء والحياة، كما طلب منه مازن... قدماه تعرف الطريق دون أن يُبصر موقع خطواته على الأرض... عيناه تمتلئان بدموع لم يعرفها في حياته من قبل.. كان كل شيء يحدث له للمرة الأولى... كل ما كان يفكر فيه هو أن يصل إلى الكوخ ويأخذ فتاته ويرحل بعيدًا عن أي شيء عرفه من قبل... يوسف الذي كان مجرد آلة لتنفيذ كل ما يُطلب منها من قبل اكتشف أنه يملك بين ضلوعه قلبًا يشعر ويتألم... لم يعد يهتم بالتركة التي حملها على ظهره ولا بالخلاص ولا بأي شيء... لم يعد أي شيء مهم... حتى ما أخبره به مازن في لقائهما الأخير لم يعد مهمًّا... مازن لم يكن يسوع ولن يكون بالنسبة له حتى لو كانت

تلك هي حقيقة الأمر... هو لن يكون يهوذا ولن يكون هناك يهوذا... سيغادر وسيخضع لعلاج طبي مكثف ليتخلص من هلاوس أصابته بفعل سنوات أمضاها يعمل في جهاز أمني برمج عقول أفراده لكي لا يتخطوا حاجز التنفيذ الأعمى... سيقلع عن الخمر، هو لم يشرب منذ أسبوع لأول مرة، منذ أن ذاق طعم الخمور وسيستمر... سيبحث في ماهية الأديان وسيحاول أن يجعل عقله يقتنع بإحداها ويعلم أن فتاته ستتبعه ويصبحان من الأتقياء... سيدفنان سويًا في تلك البلدة ما كانا عليه من قبل وسيولدان من جديد... على باب الكوخ توقف كل شيء... لم يكن هناك أي أثر لفتاته... كان الكوخ مهجورًا كأنه لم يسكنه أحد منذ سنوات... جلس على الصخرة التي اعتاد أن يجلس عليها خارج الكوخ... كان يجمع شتات عقله المضروب بصدمة الفقد... يفرك عينيه بأصابعه ليتأكد من حقيقة الصورة التي يتطلع إليها... لم يكن هناك أي أثر لوجود أحياء في تلك البقعة على الإطلاق وهو الذي غادر الكوخ تاركًا فيه الفتاة منذ بضع ساعات فقط... صورة جسد مريم ناصع البياض تتراقص تحت ضوء النجوم أمام عينيه، التي جرت فيها أنهار الدموع بلا توقف... أنفاسه تتلاحق... رأسه ينسحق تحت ضربات الصداع الناتج عن ارتطام رأسه بجذوع الأشجار التي تحيط بالكوخ... دار في المكان باحثًا عن كوخ آخر، لعله أخطأ تلك المرة في الوصول للمكان الذي ينشده... الصداع يتوالى مع اصطدام رأسه المتكرر بالأشجار

رغم الدماء المنسابة... لم يعد يهتم بأي شيء... لن يصبح من الأتقياء ولن يغادر القرية ولن يفعل أي شيء... مازن كان على حق، رغم أنه لم يفهم يقينًا ما قاله... هو فقط الآن يفهم أنها النهاية... وعلينا جميعًا أن نتقبل نهاية الطريق الذي اخترنا بكل حرية السير فيه.

❊ ❊ ❊

وكانت الساعة نحو الثانية عشرة ظهرًا. وخيّم الظلام على كل الأرض حتى الساعة الثالثة بعد الظهر. فلم ترسل الشمس ضوءها طوال ذلك الوقت. وانشقت ستارة الهيكل إلى نصفين. وصرخ يسوع بصوت عال: "يا أبي، أستودع روحي بين يديك". ولما قال هذا أسلم الروح. ورأى الضابط الروماني ما حدث فسبّح الله وقال: "لا ريب في أن هذا الرجل كان بريئًا". ورأى كل الناس الذين تجمهروا الأشياء التي حصلت، فمضوا وهم يقرعون على صدورهم. أما كل الذين عرفوه، فقد وقفوا من بعيد يراقبون كل ما يحدث. وكان من بينهم النساء اللواتي تبعنه من الجليل.(١٧)

❊ ❊ ❊

١٧

في البداية كان هناك وعدا بدهشة غير مسبوقة.. والآن على هامش الطريق وحده في مسوحه السوداء، التي ارتداها مجددًا ينتظر أن يتوقف أحد العابرين ويقبل في أن يقله بعيدًا عن هذا المكان... لم يكن هنا أحدا ليخبره أنه سيرحل ولا يدري إن كان قد وجد في رحلته ما وعد... فقط يعلم الآن وهو ينهي سيجارته الأخيرة أنهم لن يدخلوا أبدًا التاريخ... لن يتذكر أحدًا أبدًا تفاصيل الرحلة... وسيبقى باعة الأحلام وكتابهم السري محض أوهام في ذاكرة التاريخ... مجرد حفنة من الهلاوس، التي ملأت العقول التي ستظل تهمة المرض ترافق أسماءهم كصفة لن تُمحى أبدًا.

❋ ❋ ❋

يا كل حاجة كسبتها أو سبتها

مقدرتش أشبع منها إكمنها

قالت هنروح من بعض فين

يا ناس ياعبط ياعشمانين

فى فرصة تانية للقا

بطلوا أوهام بقى

كفاية أحلام وإسمعوا

عيشوا بذمة وودعوا

كل حاجة بتعملوها

وكل حد بتشوفوه

عيشوا مشاهد كل مشهد

زى ما يكون الأخير

اشبعوا ساعة الوداع

واحضنوا الحاجة بضمير

ده اللى فاضل مش كتير

اللى فاضل مش كتير.(١٨)

❊ ❊ ❊

القصر الكبير الذي شهد كل ما مر من أمور ضاق على يوسف، بعد أن كان رحبًا... لو لم يكن حتمًا عليه الذهاب هناك ما كان فعلها... فقد بات يرى الأشياء بلا ألوان... جسد مريم ووجه فتاته في ليلته الأولى معها في الكوخ يختلطان في مخيلته مع وجه مازن الذي بَهت فيه ضياؤه في لقائهما الأخير... وفى الخلفية امتزجت معهم عدد من وجوه الماضي البعيد، التي عادت من جديد... ليس على الإنسان أن ينسى أو هو لن ينسى حتى لو أراد... دخل غرفة المطبخ وسحب في يديه زجاجتي خمر معتق من الحجم الكبير، قبل أن يصعد الدرج الطويل نحو سماء حياته التي باتت بلا أي سماء ولا أي أرض... موسيقى تتشكل من إيقاع أصوات تأوهات الذين عذبهم وصرخات الذين قتلهم ببرود في أيام ظن أنها رحلت لكنها عادت لترسم معه لوحة النهاية لتلك الحياة التي كان فيها مُجبرًا بفعل وهم الخلاص المنتظر... فاته أن يعلم أن الخلاص ليأتي لا بد أن يقدم قربانًا تتقبله السماء... لا بد أن يحيا إنسانًا في الأصل وهو لم يكن كذلك... الآن وهو يتأمل شريط الحياة التي عاشها كله يُدرك حقيقة أنه لم يكن أبدًا إنسانًا ولا حتى حيًّا... جلس على مكتب مازن وأخذ يكتب... كان يريد أن يكتب كل ما يتذكره وليُغفر له ما لن يتذكر... ربما لن يهتم الكثيرون لما سيكتب، لكنه كان يفعلها ليتطهر من حياته السابقة قبل الحياة الأخرى التي تنتظره... يفعلها وهو يأمل أن ينظر له أحد في القادم، لو كان هناك قادم لعله يفلح

فيما فشل هو فيه ويقدم قربان الخلاص من أرض الأموات التي يعيشون فيها... كتب أسماء الذين قتلهم بالتواريخ... كتب الأحداث التي دبرها ليقلب الوضع في صالح النظام الحاكم... كتب كل ما تذكر من تفريغ مكالمات الهاتف التي أشرف على سماعها... كتب كل ما يعرف من خبايا تخص أسماء تملك بين يديها خيوط التحكم في السائرين في طرقات المدن هائمين وهم يظنون وهمًا أنهم يتحكمون في مصير حياتهم... كتب عن مازن وكل الإشارات، التي راودته عن نفسه طوال فترة معرفته به من قبل الهوجة التي يعلم الآن أنها كانت البداية... كتب عن مريم أو نوال أو حواء أو أي ما كانت وكل ما عرفه عنها حتى دفنها في المكان الذي رسمه له مازن بعناية في لقائهما... كتب عن فتاته التي اختفت في ظروف غامضة وكتب أُمنيته الأخيرة بوداعها وداعًا كان يليق بما فعلته له... كتب اسمه ونسبه ووظيفته وحكايته كلها حتى تلك اللحظة، التي يسكر فيها بما تبقى من الزجاجة الثانية... لم يشعر بالوقت ولم يكن يريد أن يشعر... وضع كل ما كتب في ظرف وأحكم غلقة ووضعه على المكتب الخشبي العتيق بعد أن عنونه: إلى من يهمه الأمر...

جلس على الأرض يلهث بفعل الخمر والتأثر والدموع التي عاودته مجددًا للمرة الثانية... لم يكن يخاف أبدًا من فعل أي شيء لكنه تلك المرة كان يشعر بالخوف... لم تفلح كلمات مازن الأخيرة بأنه سيكون قطرة في كأس الخلاص الذي بدأ بمريم وسينتهي به هو...

وجه فتاته النائم في وداعة الأطفال يوجعه... لكن أنّى له أن يراها مجددًا إلا بتلك الطريقة... دخل إلى الحمام الكبير، حيث كانت ترقد جثة مريم منذ ليلتين أو أكثر لم يعد يذكر الآن أي شيء... رقد بهدوء في حوض الاستحمام بعد أن تجرد من ملابسه كلها واغتسل كما لم يغتسل من قبل... كسر زجاجة الخمر على الأرضية الرخامية السوداء وابتسم وهو يشتم رائحة الطيب التي كانت تعبق أنفاس فتاته... وانساب نهر الدم من بين ذراعيه التي ضمهما وهو يحضن ذكرى ستبقى معه في رحلته الجديدة.

❊ ❊ ❊

فى خط الحياة المنحني بشكل عشوائي تنتابك بعض اللحظات التي تشعر فيها بالشجن والحنين... غُصة صغيرة بالقلب... احتياج إلى حضن دافئ يجعلك تمتلك الدنيا كلها... في الغرفة الداخلية للدكان جلس وسط قصاصات الذكرى يستمتع برقصة الآخرين الأخيرة على أنغام وجع لن يشعرون به الآن... كان قد أنهى سطر الجزء الخاص به في الكتاب السري لباعة الأحلام... كان يعلم أن الحقيقة المدفونة بين طيات الكتاب ستظل مدفونة إلى الأبد، ولكن لا بد أن ينهي مهمات دوره حتى النهاية... ينتابه بعض الحنين إلى أشياء فات أوانها... أفكار يتمنى الآن لو كان قد كتبها في حياته البشرية الماضية لتبقى في ذاكرة الحياة... نظرات أخيرة كان يرغب في أن يلقيها على

مريم التي يدرك الآن أنه لم يعشق مثلها أبدًا... كان يأمل في برتقالية لون الشمس الساطعة لتمنحه دفء ليلة هانئة لتعوضه اجتياح الحنين الجارف إلى دفء ذراعيها الملتفتين حوله في ليلة حب فردوسية، لكن الشمس لن تسطع بعد اليوم ولن تمنح دفئها أبدًا... ورغم ذلك لم يكن يشعر بالندم... فانتظار الشيء لا يعني بالتبعية حتمية حدوثه.. في الكثير من الأحيان الانتظار يصنع الأشياء من العدم، والقادم سيكون حتمًا أفضل له ولهم أيضًا... أصوات الغاضبين تصله من بعيد... كان يعلم أنهم يخشون نور الحقيقة؛ لأنها تكشف زيف حياتهم... تضعهم أمام عوراتهم التي يظنون أنهم يسترونها بما يفعلون... هم فقط لا يدركون أنهم أطراف لعبة الحياة المرة وأن في ملعب الدنيا دائمًا ما يخرج الموت منتصرًا... نور الحقيقة يجعلهم يرون قبح ما يعتقدون وما يتشدقون به ليل نهار على شاشات التلفاز، وعبر أثير موجات الراديو وعلى صفحات جرائدهم الحكومية... يحتاجون لأن تسقط كل أيدلوجيات العالم... لتتقدم عجلة الأمور للأمام ولا ترجع للخلف أبدًا... يحتاجون للحب وللتحليق إلى عنان السماء... يحتاجون إلى الأحلام لكنهم يخشون...

أصوات زئيرهم ترتفع كلما اقتربوا من خارج الدكان... صوت الأحجار التي تُقذف من أيدي أموات بني البشر الذين يحيون في أرض الظلام تهوي على الدكان تساوي به الأرض لتجعله كما لو لم

يكن... أغمض عينيه واستسلم لهدوء المصير المعروف مسبقًا... من خلف جفونه كان يرى مريم مع يوسف وعجوز الدكان ومن خلفهم أتباع الأحلام والكريات الملونة تُشع ضوءها نحو باب السماء المفتوح... حفل مهيب امتطى فيه فرسه الأسطوري بقرنيه المرفوعين نحو الشمس في شموخ، وقطع آخر خطواته باتجاه مذبح الإله المقدس...

❋ ❋ ❋

أنا بائع الأحلام

رسول أمنح أحيانًا أحلامًا مجانية بلا مقابل.. أحلامًا سعيدة مبهجة.. وككل أصحاب الرسالات العظيمة كذبوني.. اتهمونى بالجنون وباعتناق الهرطقات.

حينما سألتهم عن عدد القبلات التي احتاجوها ليصبحوا واقعًا جنينيًّا في عالم مهووس اتهمونى بالفجور.. تمسكوا بأوثان كآبة ورثتها عقولهم من عصور ما قبل الكينونة.. على مشانق البؤس علقوا جسدي ليترنح، بينما الروح ما تزال تغط في سعادة الأحلام التي رفضتها قلوبهم فانطلقت معي نحو سماء الكون البهيج.

تمت

الهوامش

١ - العهد الجديد.. رؤيا ٤ : ٧ - ٥: ١٠ ص ٤١٩ -٤٢١
٢ - قصة الجنس عبر التاريخ.. ري تاناهيل
٣ - العهد الجديد... لوقا ١ : ٤٦ – ٦٤ ص ٩٧ – ٩٨
٤ – العهد الجديد.. رؤيا ٦ : ٦ ، ٦ : ٧ ص ٤٢١ – ٤٢٢
٥ – فيه ما فيه.. جلال الدين الرومي
٦ – العهد الجديد... لوقا ٣ : ١ – ١٨ ص ١٠١ – ١٠٢
٧ – الصوفيون... إدريس شاه.. ط٢ المركز القومي للترجمة ص ١٠١ – ١٠٢
٨ - المثنوي... جلال الدين الرومي..
٩ – العهد الجديد.. يوحنا ٣ : ٢٢ – ٣٦ ص ١٥٩ – ١٦٠
١٠ – العهد الجديد.. رؤيا ٦ : ٦ – ٧ : ٦ ص ٤٢١ – ٤٢٢
١١ – ديوان ابن الفارض.
١٢ – العهد الجديد.. روما ٥ : ١٢ – ٥ : ١٥ص ٢٥٨ – ٢٥٩
١٣ – يهوذا الإسخريوطي... ويكيبديا
١٤ – ديوان الحلاج.
١٥- إنجيل مريم المجدلية.
١٦- مخطوطة إنجيل يهوذا.
١٧ – العهد الجديد... لوقا ٢٣ : ٤٤ – ٤٩ ص ١٥٢
١٨ – شعر مصطفى إبراهيم.

ج ٠ م ٠ ع

(+٢) ٠١٠٠٦٤٢٢٠٦٦

(+٢) ٠٣/ ٥٩٣٠٥٧٦

الحسناء للنشر والتوزيع

www.Hasnaabookstore.com